يوسف سامي اليوسف

حطين

الأهالي

طين

يوسف سامي اليوسف

إلى ذكرى داود يعقوب

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ٢/ ٨٨/ ٣٠٠٠

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

مدخل

قديم هو الصراع الدموي بين الشرق والغرب، قديم إلى حد لا يمكن معه الجزم بأن حرب طروادة ـ أبعد ما يستوعبه التاريخ من حلقات هذا الصراع ـ قد كانت حقاً بداية السلسلة. ثم إن الحرب التي شنّها دارا وابنه احشويرش ضد اليونان، قبل خمسة وعشرين قرناً من يومنا هذا، تقع في منتصف المسار التاريخي للبشرية، على وجه التقريب، إذ لا يزيد عمر التاريخ العالمي كله عن خمسة آلاف سنة إلا قليلاً[1].

وبعد قرن ونصف القرن من عصر دارا الأول استطاعت القوة المكدونية، مقودة بالاسكندر الأكبر، أن تجتاح النصف الغربي من آسيا، فضلاً عن مصر، خلال أحد عشر عاماً غيّرت مسار التاريخ البشري كله.

وجاءت حملة هنيبال البطولية، ولكن المخفقة، على ايطاليا (٢١٨ ـ ٢٠٢ ق.م) بمثابة حلقة جديدة في سلسلة الصراع الغربي ـ الشرقي.

ثم رد الرومان الفعل وهزموا هنيبال في زاما (٢٠٢) ق.م، وأرغموه على الانتحار في شواطىء الأناضول عام (١٨٣ق.م). وتابع الرومان خطتهم في الهجوم على الشرق فضموا الأناضول إلى ممتلكاتهم إثر معركة مغنيزيا (١٩٠ق.م)، وضموا كذلك معظم الشمال الافريقي بعد تدمير قرطاجة (١٤٦ق.م). وفي القرن الأول قبل الميلاد اجتاحوا بلاد الشام بقيادة بومبي، وسيطروا على مصر سيطرة تامة أيام أوغسطس قيصر.

ولا ريب في أن غرب الشرق، أو أرض الحضارات الأولى، لم يُهزم إلا لأنه قد شاخ واهترأ بفعل تراكم الأزمان على ترابه المستهلك. ولا ريب في أن الحروب والثورات الكثيرة التي جرت خلال الألف الأول قبل الميلاد في الهلال الخصيب ومصر، وكذلك في الأناضول وايران، قد أنهكت غرب الشرق وهيأته للسقوط في أيدي الاغريق والرومان. وكانت حروب الآشوريين ألعن حروب عرفها تاريخ منطقتنا في الزمن السابق للميلاد كله. ولا ريب في أنها جاءت أخطر انهاك هيأ غرب الشرق للسقوط في قبضة الاسكندر المكدوني، الذي صال بقوة فتية على كيان متداع ومهيأ للسقوط. فبكل توكيد، ان مستقبل الكائن الحي يتناسب عكساً مع مسافة ماضيه. فما له ماض طويل له مستقبل قصير وحسب. والعكس بالعكس.

وأياً ما كان الشأن في قلب جوهره، فقد تصدى الفرثيون في ايران للأغريق ثم للرومان، وانتزعوا منهم، على وجه التقريب، جميع الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات، وخاضوا ضد الرومان معركة حاسمة بالقرب من حران الواقعة في أواسط السهل السوري الواسع، وقتلوا القائد الروماني كراسوس، عام ٥٣ ق.م. واستمر الصراع متقطعاً بين الفرثيين وورثتهم الساسانيين، من جهة، وبين الرومان وورثتهم البيزنطيين، من جهة أخرى. وفي القرن الثالث الميلادي استعر القتال بين الساسانيين والرومان، كما استعر كذلك بين تدمر وروما. وآلت الأمور إلى خروج زنوبية من مسرح التاريخ، وإلى تخريب تدمر ثم إلى استتباب الأمر بين الدولتين العظميين. وما هزمت القوة الآسيوية هذه المرة أمام القوة الاوروبية إلا لأن الطرفين الآسيويين، الساسانيين والتدمريين، قد تطاحنا بدلاً من أن يتحدا[٢].

يقيناً، لقد أثبتت حروب الرومان واليونان في آسيا وشمال أفريقيا أن الشرق فسحة خارت قواها منذ زمن بعيد وأصبحت غنيمة ناجزة لأي غاز على الإطلاق[٣].

وخلال القرنين الرابع والخامس خفّت حدة التوتر بين الساسانيين والبيزنطيين، وان لم تتوقف الحروب بينهما توقفاً تاماً. وبينما كان الساسانيون يمثلون الخندق الأمامي لآسيا في مواجهة أوروبا، كان البيزنطيون يمثلون الخندق الأمامي لاوروبا في مواجهة آسيا. وفي الحق أن بيزنطة هي بوابة أوروبا وقلعتها الأولى ودرعها الواقي.

بيد أن الحروب اندلعت على أشدها بين الدولتين في القرن السادس، وكذلك في العقود الثلاثة الأولى من القرن السابع. وما إن تمكن الامبراطور البيزنطي المقدام، هرقل، من انهاء تلك الحلقة من الحروب لصالح بيزنطة، حتى اندلعت من الصحراء آخر قوة احتياطية في حوزة العالم العربي القديم. انها قوة العرب، آخر سهم في جعبة الصحراء. وتمكنت هذه القوة من تحرير بلاد الساميين والحاميين القدماء، وانتزاعها من براثن بيزنطة، واسترجاع هويتها السامية ـ الحامية من جديد. وأضافت القوة العربية إلى هذا النصر على اوروبا انتصاراً آخر لا يقل عنه أهمية. فقد هيمن العرب على البحر المتوسط، واقتحموا اسبانيا وصقلية واجزاء أخرى من اوروبا. ومع أنهم أخفقوا في محاولاتهم الرامية إلى طرد الاوروبيين من الأناضول، فإنهم قد دوخوا بيزنطة وهيأوها للسقوط على أيدي الأتراك السلاجقة والعثمانيين (وهؤلاء ورثة أولئك).

وردت اوروبا الفعل حين أصبحت بوابتها الشرقية مهددة بالسقوط على أيدي السلاجقة، بعدما هدد العرب، وورثتهم البربر[4]، البوابة الغربية للقارة الصغيرة التي وصفها نابيلون بأنها «جحر خلد». ولهذا جاءت الحملات الصليبية المتلاحقة، وهي حملات تستهدف ـ فضلاً عن حماية بوابة القارة ـ إعادة السيطرة الاوروبية على غرب آسيا وشمال افريقيا، أو إعادة الأمور إلى ما كانت عليه أيام اغسطس قيصر، أو إلى الوضع الذي سبق ظهور العرب على مسرح التاريخ. وهذا شأن كان اوانه قد فات في تلك الأيام[5].

ودحرت الحملات الصليبية كلها، وخرج الشرق منتصراً، اللهم إلا في

اسبانيا حيث تقلص النفوذ الشرقي واقتصر على امارة صغيرة هي امارة غرناطة. والأهم من ذلك كله أن قد صار الشرق في طور التفوق، مع نهاية الحروب الصليبية، أو في اوائل القرن الرابع عشر الميلادي، إذ امتلك قوة طازجة، هي القوة العثمانية، أنشبها في وجه أوروبا، فراحت تجتاح حوض الدانوب، قبل فتح بيزنطة وبعده، كي تواظب على الزحف شمالاً حتى اسوار فيينا.

وجاء القرن السابع عشر بمثابة نقطة تحول جذري لصالح الغرب. فقد هزم العثمانيون حول العاصمة النمسوية عام ١٦٨٣. ثم أخذت القوة التركية بالتراجع التدريجي، فاندلق الاوروبيون في الشرق وأخذوا يجتاحون معظم اجزائه، ولا سيما الشرق الأقصى الذي لم تكن له أية خبرة سابقة بالصراع ضد اوروبا، وذلك ابتداءاً من القرن الثامن عشر، يوم بلغ الشرق أسفل درك في سلم انحطاطه التاريخي.

وهكذا جاء الاستعمار الحديث، وجاءت معه الصهيونية، بمثابة حلقة جديدة في سلسلة الصراع بين الشرق والغرب. ومع أن معظم أجزاء الشرق تبدو في يومنا هذا وكأنها قد تحررت من الهيمنة الغربية لدى النظر إلى سطح الأمور، فان الشرق الراهن يعيش أسوأ استعمار شهده التاريخ كله، اللهم باستثناء الاستعمار الروماني المقرف. فثرواته منهوبة وطاقاته في نزيف دائم، وطبقته السائدة خائنة ومتحالفة مع الغرب ضد ابناء جلدتها. والأهم من ذلك أنه غير قادر على اعادة إنشاء الدولة البناءة، وهي الجهاز الذي افتتح به التاريخ البشري في مصر وسومر، ثم تطور تحت اشرافه وبفضله على نحو لا تخطؤه العين.

لا مجال للريب، إذن، في أن الشطر الأعظم من مساحة التاريخ البشري كله، يشغله صراع بين كتل بشرية متباينة العروق واللغات والأديان والأوطان. ومن السخف أن ينظر إلى الصراع القرطاجي ـ الروماني، أو التركي البيزنطي، أو الصليبي ـ العربي، أو المغولي ـ الصيني، من حيث هو صراع غير قومي، أو غير

ديني، أو غير حضاري، أو غير عرقي، في الماهية والصميم، على الرغم من المحتوى الاقتصادي الناصع لكل صراع بشري كبير على الاطلاق. فكل صدام كبير بين قوتين بشريتين، طوال التاريخ، بل قبل التاريخ، إنما هو صراع بين «نحن» و«هم»، أقصد بالضبط بين كتلة بشرية توحدها هوية معينة، وبين كتلة أخرى لها هوية أخرى. وبايجاز، إن التاريخ صراع بين هويات أو ماهيات، أو قل بين أنماط لانكشاف الوجود البشري وتجلياته الكثيرة الألوان.

وليس مدار الصراعات التاريخية كلها على الاقتصاد وكفى، ولا حتى على الهيمنة وحسب، إذ هي تدور على الوجود والعدم في المآل النهائي. «أن نكون أو لا نكون»، هذا هو مدار اللعبة بالضبط، وهذا هو شعارها.

لقد انقرضت الهوية الفينيقية بعد هزيمة الفينيقيين على أيدي المكدونيين في الشام، وعلى أيدي الرومان في شمال افريقيا. وتلاشت الهوية الآشورية (مع ان الآشوريين ما انفكوا موجودين حتى الآن) بعد انهيار آشور في أواخر القرن السابع قبل الميلاد على أيدي البابليين والميديين. وقل الشيء نفسه فيما يخص الحثيين والبيزنطيين، بل فيما يخص الشعوب القديمة كلها.

وليس في الميسور تحييد الأسباب العرقية واللغوية والدينية من قائمة أسباب الصراع البشري، فهي عوامل ماهوية تستتب في النواة الصميمية لأي صدام كبير بين قوتين تتمايزان دينياً ولغوياً. ولا تسويغ للعاقل إذا ما نظر إلى هذه الأسباب من حيث هي مجرد أغلفة لحائية تغلّف سبباً آخر للحادث التاريخي، أياً كان هذا السبب.

فأداة الصراع الأولى هي الشعور الداخلي للانسان، أما السيف والبندقية والصاروخ فتأتي في المرتبة الثانية. إن ايمان الجندي بنظافة غاياته التي يقاتل من أجلها، هو العامل الأول والأكبر في أي نصر تحرزه قوة بشرية على قوة بشرية أخرى. ولهذا فإن في منتهى السخف القول بأن الأسباب اللغوية والوطنية

والـدينيـة، لا تعـدو كونهـا قشـرة تغلف السبب الاقتصادي، الذي هو، فـي نظر بعض علماء الاقتصاد، سبب الأسباب وعلة العلل.

إن التفسير الاقتصادي للتاريخ، ليس ـ من الناحية المعرفية ـ نظرة مغلوطة وحسب، بل هو ـ من النـاحيـة الاخـلاقيـة ـ اهـانة للإنسان، أو استهانة بكرامته وقواه الذاتية وطاقاته الروحية الخلاقة. إن وضع العامل الاقتصادي علة لكل علة تاريخيـة هو نظـرة سطحيـة تفتقـر الافتقـار كله إلى العمق والتأمـل والقـدرة على الـذهـاب إلى البعيـد. وقـد لا أبالغ إذا ما زعمت بأن البشرية لن تنقرض إلا يوم تفقد كل مسوّغ لاعتناق أية قيمة وجدانية نبيلة.

وكثيراً ما يغلط بعض المؤرخين فيرون في تجليات الظاهرة أو نتائجها اسباباً لها أو دوافع تحركها نحو مآلها الأخير. وهذه غلطة شائعة كثيراً ما ترتكب حتى في الحيـاة اليـوميـة. فمثـلاً، هجم الاسكنـدر المكـدوني على الشـرق ونهب كنـوزه وثـرواتـه. وظن بعض المؤرخـين أن هذا النهب هو سبب الهجـوم المكـدوني على الشرق، مع ان هذا النهب هو الهجوم نفسه، أو نتيجة من نتائجه. وبذلك جعلوا من انكشاف الظاهرة، أو من مسارها نفسه، سبباً لها يحد ماهيتها وفحواها.

وإذا ما استأنى العـاقـل فإنـه لن يجد للحـادث التـاريخي العمـلاق، أعني الحـادث التحـويـلي، كهجمـة المغـول على الصـين والعـالم الاسـلامي وأوروبـا الشرقية، سوى سبب واحد ووحيد، تعد الأسباب الأخرى كلها مجرد تجليات له، أو حتى مجرد نتـائـج وحسب. ومـا هذا السبب إلا التفـور أو الـدفق الحيوي الذي يتمتع به مجتمع من المجتمعات في طور من أطواره التاريخية. وقد اسماه ابن خلدون «سورة العصبية»، وأسماء اشبنغلر «السورة»[٦].

فلا محيد عن التمييز بين مجتمع صاعد وآخر هابط، أو بين مجتمع فائر وآخر هامـد. ثم ان مثنـويـة الشباب والشيخوخة هي ناموس خالد يتعذر على أي كيان حي أن يخرج من شبكته في أي زمان أو أي مكان.

فحتى الثورة الفرنسية، مثلاً، هي في الحقيقة نتاج فورة، أو سورة، راحت

تتفجر داخل جسد شاب. وهي بكل وضوح صراع بين نمطين متباينين لانكشاف الوجود البشري، نمط قديم شائخ فاسد، ونمط جديد مشبع بالخضاب الأحمر الحي. والحقيقة أن ليس التبدل الاقتصادي، أو مجيء المصنع الآلي، سبباً للثورة الفرنسية، وانما التبدل الاقتصادي والثورة معاً هما نتيجة للتفور المتدفق في شرايين المجتمع الفرنسي خلال القرن الثامن عشر.

فلا ريب في أن لكل مجتمع بشري ينبوعاً مركزياً واحداً. وهو ينبوع تجريدي حدسي، بل وهمي كخط الاستواء. من هذا الينبوع الواحد تنبثق جميع مفرزات المجتمع الواحد، كالاقتصاد والجيش والفكر والتعليم.. الخ.. وينبوع المجتمع الشاب يفرز مفرزات معافاة. أما ينبوع المجتمع الشائخ فلا يفرز إلا ما هو معلول، في الغالب الأعم[٧].

وان لم يكن الأمر كذلك، فماذا عساه أن يكون ذلك الشارط الذي يشرط الاقتصاد نفسه، وهو الظاهرة البشرية التي يراها بعض الاقتصاديين علة العلل وشرط الشروط؟ إن الاقتصاد معلول دون أدنى ريب. وهو نتاج لتفور الدم الاجتماعي أو لدورته البطيئة.

ويقيناً، إن مثل هذا المنزع يفضي بالمرء إلى حافة انكار الأسباب كلها، ولا سيما أسباب الكليات، بحيث لا يبقى سوى الانكشاف أو التجلي، أو مجيء الممكنات إلى حيز الوجود. غير أن هذا المنزع لن يطالب العاقل أبداً بتنحية العامل الاقتصادي جانباً حين يدرس أية ظاهرة تاريخية. إذ لا يغفل دور الاقتصاد في الحياة البشرية، اليومية والتاريخية، إلا أحمق، أو ممرور.

وقصارى ما أُريد قوله أن الحروب الصليبية لن تفهم البتة إلا من حيث هي حلقة في سلسلة الصراع الطويل المرير بين الشرق والغرب، وإلا بعد أن تؤخذ العوامل الدينية واللغوية والعرقية بوصفها بعضاً من الأسباب الجوهرية لتلك الحروب المأسوية العنيفة. وهذا يعني أن الظاهرة الصليبية هي توأم للظاهرة الصهيونية الراهنة، حتى لكأن التاريخ يعيد نفسه، ولو على نحو نسبي أو جزئي.

أوربا تخرج من ظلماتها

منذ مطالع القرن الحادي عشر الميلادي أخذت علائم الحيوية والدفق العارم تتبدى على سيماء المجتمعات الاوروبية الغربية على نحو لم تألفه من قبل. فلقد بادرت اوروبا خلال هذه البرهة الانتقالية إلى الخروج من «عصر الظلمات» الذي أخذت ترزح تحته إثر سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي[٨]، وراحت تدخل في صيرورة حضارية وتاريخية جديدة. ويكفي أن يعرف المرء أن بعض الناس في أوروبا ـ وفقاً لما يصرح به المؤرخون الاوروبيون أنفسهم ـ قد كانوا يرون في الاغتسال «خطيئة» على نحو قاطع، لكي يدرك إلى أي درك ظلامي قد تدنى مستوى الحياة البشرية في أصقاع الغرب.

ومما هو جدير بالتنويه في هذا السياق أن العرب، الذين اقتحموا اوروبا منذ مطالع القرن الثامن الميلادي، هم الذين استرجعوا الأقطار الاوروبية من اغماءتها المريعة التي اوغلت فيها ايغال من لا يزمع الاياب. فمن ذا الذي يضمن ان اوروبا، من دون العرب، لم تكن لترتد صوب مزيد من الهمجية، بحيث تتصفر أو تتقهقر إلى العصر الحجري، أو إلى ما قبل العصر الحجري؟ ففي الحق أن التخلف يفقس التخلف في كثير من الأحيان.

يقيناً إن الذهب الذي جلبه العرب من السنغال إلى اوروبا قد كان واحداً من أهم العوامل التي اسهمت في نشوء المدن الاوروبية، بل في ظهور الحضارة الاوروبية برمتها. ولولا تقاليد البحرية التي تركها العرب في اسبانيا وايطاليا

والبرتغال لما تيسر لأوروبا أن تكتشف المحيطات والقارات الجديدة. فليس من قبيل الصدفة أبداً أن يكون أعظم المكتشفين الاوروبيين من أبناء الأقطار الثلاثة التي دخلها العرب فاحتكت بهم على نحو وثيق.

ولو لم يكن العرب سوى نوع من التحدي الموقظ، أو «السلب الموجب»[٩]، بلغة الفلسفة الجدلية، لظلوا السبب الرئيسي، أو العامل الجوهري، في ايقاظ اوروبا وتأسيس حضارتها الحديثة.

لم يكن في اوروبا الغربية أية مدينة ذات شأن عشية ظهور العرب على مسرح التاريخ في القرن السابع الميلادي، أو يوم اقتحموا أوروبا في مطالع القرن اللاحق. فقد استطاعت هجمات الشعوب الهمجية الآتية من الشمال، من المانيا واسكندنافية، أن تقضي على جميع المظاهر الحضارية الرومانية في ايطالية وفرنسا وسواهما، فما كان إلا أن غرقت أوروبا الغربية كلها في الهمجية. فتدهورت الصناعة والبحرية وانعدمت الدولة في معظم الأقاليم، وانتشر قطاع الطرق، مثلما تفشت الاوبئة والمجاعات. وفي القرن التاسع الميلادي ظهر النورمانديون في فرنسا وأعملوا التخريب في آخر بقايا الحضارة الرومانية. فصارت الأمية هي الشيء الطبيعي في جميع أقطار الغرب، أما التعلم والتعليم فمعدومان على وجه التقريب. بيد أن القرن العاشر، وهو القرن الذي بلغت فيه الحضارة العربية أوجها الذي لم تتخطاه من بعد، قد شهد بداية التفتح الحضاري في أوروبا التي بدأ فجرها يبزغ على نحو بطيء. إذ لقد أخذت المدن تتنامى بالتدريج في شمال ايطالية، وأخذت الدولة تحبو وتتدرج صوب النضج في كل من المانية وفرنسا. كما أن حركة الكتابة قد راحت تنتشر بعض الشيء نتيجة لنمو الأديرة، ولا سيما دير كلوني الذي أسهم اسهاماً ملموساً في تطور الغرب والثقافة الغربية[١٠].

أما القرن الحادي عشر فقد مثل، في مسار الصيرورة الاوروبية، برهة الانتقال أو التحول من طور الخمود إلى طور التفور الدافق.

ولعل محاورة البعيد والتأثير في النائيات أن يكون بين أبرز العلائم على

التحرك الغزير والحيوية الدافقة التي هي التاريخ البشري بام عينه، فضلاً عن أنها أسباب حوادثه الكبرى برمتها[١١]. ولا ريب في أن الانسان حوار واشتياق إلى الحوار.

وفي الحق أن محاورة البعيد قد أخذت تكشف عن نفسها في أوروبا من خلال عدد كبير من الأحداث تمت جميعها في القرن الحادي عشر. أعداد غفيرة من الجنود الاوروبيين، ولا سيما من إيطاليا وفرنسا، يعبرون جبال البرانس ليقاتلوا العرب في اسبانيا؛ نجدات كبيرة جاءت من أوروبا لتساعد البيزنطيين في حروبهم ضد السلاجقة في الأناضول، انتقال النورمانديين، أو بعض النورمانديين، من شمال فرنسا إلى جنوب ايطاليا؛ الهجوم النورمندي على صقلية وانتزاعها من العرب؛ النورمانديون يعبرون بحر الادرياتيك ويهاجمون الأراضي البيزنطية في البلقان ويشتبكون مع الدولة البيزنطية في أول حرب بين الكاثوليك والارثوذكس؛ نشاط بحري وتجاري لمدن ايطالية الشمالية ولا سيما جنوا والبندقية؛ حشود كبيرة من الحجاج تتدفق على بيت المقدس بأعداد غفيرة لم يعرف لها مثيل إلا منذ القرن الحادي عشر الميلادي[١٢].

ناصع، اذن أن الدورة الدموية للمجتمعات الاوروبية الشديدة الفتاء قد أخذت بالتسارع وفقاً لنحو جديد لم تألفه اوروبا منذ أيام الرومان. وعندي أن هذا التسارع في دوران الدم، أو قل هذا الفتاء المعافى، هو الينبوع الاول الذي تنبجس منه جملة الأسباب التي أدت إلى نشوب حرب صليبية دامت زهاء مائتي سنة.

فحيثما كان ثمة تاريخ أصلي، كان ثمة عرام يتفور ويجيش ليكون هو في ذاته نسيج التاريخ نفسه، وجملة أسبابه وانكشافاته في آن واحد.

ولكن لا بد للحادث التاريخي من دوافع مباشرة، محلولة في السياق نفسه، وليست خلف السياق تحثه وتدفعه بحيث يتحرك ويتسارع. فما هي الأسباب المباشرة للحروب الصليبية؟

كانت أوروبا طوال القرن الحادي عشر، ولا سيما في سنواته الأخيرة، تكابد

القحـط والفيضـانـات والمجاعـات والاوبئـة والحـروب المحليـة، بحيث صار الاوروبيـون، والفـرنسيـون منهم على وجـه الخصـوص (وهم من ستقـوم الحملة الصليبيـة الأولى على اكتـافهم بالـدرجة الأولى)، صاروا إلى فقر مريع باتوا معه مضطرين في بعض الأحيان إلى التهام جثث الموتى وديدان الأرض.

وفضـلاً عن ذلـك فقـد كان الأمن مزعـزعـاً في اوروبـا، وكـانت الجـريمة والسرقة والسطو وقطع الدروب من أبرز الظواهر الاجتماعية. وزاد في تزعزع الأمن وتـدهـوره نشـوب حروب محلية كثيرة يمكن للمرء يومذاك أن يلقاها في كل مكان على وجه التقريب. إذ لقد تحتم على الفرسان المفلسين والخالين من كل ملكية أن يقاتلوا من أجل السلب والنهب وحيازة الممتلكات والمكانة الاجتماعية البارزة.

ولهـذا، ليس من المبـالغـة أن يقـال بأن رغبـة الكنيسـة في تصدير الارهاب والـرعب إلى الخـارج قد كانت من أهم الأسبـاب التي دفعت الكنيسة إلى اعلان الحـروب الصليبيـة، ولا سيـما بعـد اخفاق معظم المحاولات التي بذلتها المؤسسة الدينية لايقاف النزاعات المحلية.

فقـد حددت الكنيسـة الأيـام الحرم التي لايجوز فيها عدوان ولاقتال، وهي أيـام الأحـد والأعياد الدينية وحسب. ولكن هذا التحريم لم يوقف الحروب، لأن معظم أيام السنة قد ظلت غير حرم.

أمـا السنـوات السبـع العجـاف التي سبقت الحـروب الصليبية مباشرة فقد هيأت المنـاخ المنـاسب لأي نداء ديني أودنيـوي بالتوجه إلى أية حرب. فقد أسفر القحط في تلك الآونة عن مجاعة مريعة في بعض الأقاليم الاوروبية، وأخذ الناس يمـوتـون بالآلاف، وكثـر الفقراء والمتسولون والمفلسون، وانتشر البؤس على نحو مريـع. وزاد في الطـين بلة أن الفيضـانـات قد عملت على تدمـير الكثـير من الأراضي التي نجت من القحـط. فلقـد كانت أوروبـا من التخلف بحيث تعجـز عن انشـاء أي سد من شأنـه أن يدرأ خطر الفيضان. فالنزعة الاجرائية الرومانية،

الشديدة القدرة على الانجاز العملي، قد نسيها الناس منذ زمن بعيد، فصاروا تحت رحمة الطبيعة، تماماً كأي مجتمع بدائي شديد التخلف.

فلابد، إذن من البحث عن مصادر العيش في أماكن بعيدة. ولو لم يكن الانسان الاوروبي شديد الفتاء والحيوية خلال ذلك الطور التاريخي المبكر لترمد في مكانه دون أدنى حراك أو فعل وقائي. فالمحافظة على الذات، على الكيان أو على الوجود، من اختصاص الشباب اكثر مما هي من اختصاص الشيوخ، أو المجتمعات الشائخة. ففي القرن العشرين الراهن ثمة الكثير من المجتمعات الشائخة التي تجتثها المجاعات والأوبئة دون أن تقوم بأي فعل ايجابي سوى انتظار العون، أو قل الفتات، الذي تجود به المجتمعات الغنية.

فليست المجاعة هي السبب الجوهري للحروب الصليبية، بل قدرة الاوروبي على المبادرة لدرء خطر المجاعة، أو قدرته على الاستجابة للتحدي الذي تفرضه المجاعة على الانسان الاوروبي يومذاك.

إن شعباً لا يملك استطاعة الاصغاء إلى نداء القصيّ والنائي لا يسعه البتة أن يخوض أية حرب صليبية تدوم مائتي سنة، وتجري على مبعدة آلاف الأميال عن موطنه أو بلاده، حتى لو التهمه الوباء والمسغبة التهاماً لا يبقي ولا يذر. فالاستجابة الموفقة للتحديات الكبرى ليست ناموساً كلياً شاملاً تتمتع به جميع الكيانات التاريخية، بل هي وقف على مجتمع فتي، أو على المجتمعات الفتية، وحسب.

السلاجقة والبيزنطيون

لقد تصاقب هذا الوضع المأسوي في أوروبا الغربية مع هجوم طوفاني شنته قبائل آسيا الوسطى التركمانية على أراضي الدولة البيزنطية في الأناضول، أي على البوابة الشرقية لأوروبا، وهي البوابة التي إذا سقطت في أيدي الآسيويين، فإن هؤلاء القوم سوف يصبحون قادرين على الانتشار في البلقان وحوض الدانوب، وربما في الشمال الاوروبي نفسه. وقد حدث هذا الحادث بالفعل، ولكن بعد قرنين من الزمن. فالحقيقة أن الحروب الصليبية قد عملت على تأجيل اندفاع الطوفان الآسيوي على اوروبا[١٣].

ففي أواسط القرن الحادي عشر الميلادي اندفعت قبائل التركمان السلجوقية من أواسط آسيا باتجاه الغرب، بعدما اعتنقت الاسلام. ودخلت هذه القبائل مدينة بغداد عام ١٠٥٥ ميلادية، وانهت الدولة البويهية وحلت محلها، ودانت بالطاعة والولاء الشكليين، أو الاسميين، للخليفة العباسي، بوصفه أميراً للمؤمنين.

ثم إن هذه القبائل التركمانية قد دخلت الشام وأعملت فيه القتل والتدمير إلى حد لم يألفه الشام من قبل. وبقيادة أمير يسمى أتسز، اندفع السلاجقة جنوباً فدخلوا دمشق ونكبوها بالذبح والتخريب. وتدنى عدد السكان في تلك المدينة إلى عشر العشر، كما يقول سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان. وقد قدر عشر العشر بخمسة آلاف، وقدر كذلك بثلاثة آلاف، وهذا يعني أن عدد سكان دمشق قد بلغ

ثلاثمائة ألف، على أقل تقدير، في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي. بيد أن هذا التخريب الذي حل بدمشق، بل ببلاد الشام كلها، عشية الحروب الصليبية، قد هيأ الاقليم للسقوط في قبضة الفرنجة الذين سيأتون بعد مضي جيل واحد فقط.

ثم اندفع السلاجقة جنوباً وانتزعوا فلسطين من الدولة الفاطمية. وتابعوا سيرهم بقيادة أتسز، وعبروا سيناء بغية انهاء الفاطميين والهيمنة على مصر. وعلى حدود الدلتا الشرقية تصدى لهم بدر الجمالي، وزير الدولة الفالطمية، وهزمهم، فتقهقروا باتجاه الشام من جديد. ولكن فلسطين قد ظلت في حوزتهم حتى داهمهم الأفضل، وهو ابن بدر الجمالي ووريثه في وزارة مصر، فطردهم منها قبيل مجيء الصليبيين واحتلالهم لمدينة القدس.

وفي عام ١٠٧١م، بينما كان السلطان السلجوقي ألب أرسلان يعود من حلب إلى عاصمته في أصفهان، تصدت له الجيوش البيزنطية في منازكرد قرب بحيرة وان، في الطرف الشرقي من الأناضول. ولم يكن معه سوى قطعة من الفرسان تتألف من خمسة عشر ألف جندي. وانضم له أمراء من الأتراك المحليين.

وعرض السلطان الصلح على الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس، الذي خرج بنفسه يقود جيشاً جراراً، قدره ابن الأثير بمائتي ألف، وقدره ابن العبري بمائة ألف[١٤]. ويبدو أن بيزنطة قد صممت على أن تضع حداً نهائياً لعرام الأتراك. ولهذا صرح الامبراطور قائلاً لرسل السلطان: «لا هدنة إلا في الري»، أي إلا في عاصمة السلاجقة نفسها. وهكذا دارت رحى المعركة وأسفرت عن هزيمة البيزنطيين ووقوع الامبراطور نفسه في أسر السلطان.

واثر هذه المعركة، أو في عام ١٠٧٤، راح أمير سلجوقي اسمه سليمان بن قطلمش يتوغل في الأناضول على حساب البيزنطيين.

واحتل هذا القائد التركماني، بجيوشه الجرارة، مدينة نيقية التي لا تبعد عن العاصمة البيزنطية اكثر من خمسين ميلاً، واتخذ منها عاصمة لمملكته الناشئة. وبعد ذلك بعشر سنوات دخل انطاكية (١٠٨٤) التي كان البيزنطيون قد انتزعوها من الحمدانيين قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة. ثم تحالفت «دولة سلاجقة الروم»، التي بناها سليمان، مع البشناق وأنزلوا بالامبراطورية البيزنطية هزيمة منكرة أخرى[١٥].

وتردى الوضع في الدولة البيزنطية وتدهور. بيد أن رجلاً عملاقاً من الأكفاء، سبق له أن عمل لفترة طويلة كقائد عسكري لبعض الجيوش البيزنطية في حربها ضد السلاجقة، قد تمكن من تسنم العرش عام ١٠٨١. ذلك هو الامبراطور المحنك الكسيوس كومنينوس، الذي سوف تتمكن أسرته من ارجاء اندثار الدولة البيزنطية إلى أجل آخر.

واستنجد الكسيوس بالبابا اوربان الثاني[١٦]، طالباً منه نجدة وليس حملة صليبية، أي قوة افرنجية تدخل في بنية الجيش البيزنطي ولا تعمل بمعزل عنه. وعقد البابا مؤتمر كليرمونت في فرنسا عام ١٠٩٥، وحضر المؤتمر عدد جم من رجال الدين والعلمانيين. وراح البابا يخطب في الناس ويحثهم على حمل الصليب ابتغاء مساعدة اخوانهم المسيحيين في الأناضول، وكذلك ابتغاء استخلاص بيت المقدس و «ضريح الرب» من أيدي المسلمين «الكفار»[١٧].

وهكمذا نشبت الحروب الصليبية التي لن تهدأ قبل مائتي سنة على وجه التقريب.

يقيناً، إن في ميسورك القول بأن تلك الحروب قد كانت (ولو على نحو نسبي) صراعاً بين قوتين آتيتين من البعيد: الأتراك والافرنج. ولا ريب في أن الهيمنة على شرقي البحر المتوسط قد كانت واحدة من الغايات التي يضمرها كل طرف من طرفي هذا الصراع الطويل المرير. فبعد الفراغ الذي تركه انحطاط الدولة العباسية والدولة الفاطمية معاً، وكذلك بعدما أصيبت الدولة البيزنطية

بوهن لا برء لها منه إلا على نحو مؤقت وحسب، كان لا بد لقوة يافعة طازجة من أن تهيمن على المكان. ففي التاريخ، حيثما حل الفراغ (السياسي، العسكري، الاقتصادي)، اندلعت القوى الفتية الصاعدة لترث القوى الشائخة الهابطة. فالتاريخ يجهل الفراغ ولا يطيق احتماله. والقوى الفتية هي وحدها الصالحة للحياة. وحقيقة الموجود، حقيقة الكون والكائن، يمكن تلخيصها بلفظة واحدة وحسب: القوة. إذ القوة وحدها ملاء يقاوم الخلاء. وخارج القوة لا يكون الزمان ولا يسعهُ البتة أن يكون.

تحقيب الحروب الصليبية

لعل صعوبة التحقيب (التجزيء إلى أحقاب وأطوار) أن تكون واحدة من أعسر وأشق الصعوبات التي يمكن للمؤرخ أن يواجهها لدى دراسته لأية حضارة مفردة، أو لتاريخ الحضارة البشرية مأخوذة كجملة واحدة. وعندي أن إقدام المؤرخ على التنطع لمثل هذه العقبة الكؤود هو جزء من امتحاناته الكبرى التي يخفق بعدها أو ينجح، ولو على نحو نسبي.

وما ذاك إلا لأن التحقيب الأصلي ضرب من استيعاء تخوم الأطوار وأصباغها، وادراك لتحولات الأزمان ومفاصلها. ولهذا فإن من شأن التحقيب الفذ القادر على تشطير المسار تشطيراً منطقياً، دون المساس بحرمة وحدته المتلاحمة الشاملة، أن يجعل من التاريخ مساحة للفكر الأصلي، أو فسحة لتذهن قادر على البلوغ إلى ماهيّات الأشياء.

وأياً ما كان جوهر الشأن، فان المرء قلما يصادف أي تحقيب للحروب الصليبية، أكان في مرتبة النجاح أم في مرتبة الاخفاق. حتى رنسيمان، وهو من أشهر المتخصصين عزف عن مثل هذا الأمر، بل هو لم يتطرق اليه البتة. أما العاملون في حقل الدراسات التاريخية من العرب المحدثين فلا أعرف منهم أحداً قد تصدى لموضوعة التحقيب هذه، اللهم إلا محاولة سريعة راحت تقسم الحروب الصليبية إلى أربع مراحل: مرحلة الموصل ومرحلة حلب ومرحلة دمشق ومرحلة

القاهرة. وبكل وضوح فإن هذا التقسيم يأخذ الأمر من حيث الدفاع لا من حيث الهجوم. والأصوب أن يؤخذ المسار في وحدته الجدلية الحية[١٨].

إن الحروب الصليبية قد لا ترفض الانقسام إلى حقبتين كبيرتين. وبكل توكيد ثمة، في داخل كل حقبة، أدوار خاصة وألوان يمكن تحديدها بناء على تبدلات المعطى وانعطافات المسار.

أما الحقبة الأولى (وهي التي يتوقف هذا الكتاب عند نهايتها) فتمتد من أول صدام بين الافرنج والاتراك قرب شواطىء بحر مرمرة عام ١٠٩٦، حتى صلح الرملة عام ١١٩٢. وأما الحقبة الثانية فتمتد من هذا العام الأخير حتى سقوط مدينة عكا على أيدي جنود الأشرف خليل عام ١٢٩١.

ولاريب في أن ثمة فرقاً جوهرياً حاسماً بين الحروب الصليبية قبل صلح الرملة وبينها بعد ذلك الصلح. فلقد خيضت المعارك الصليبية الكبرى، أو معظمها، في تلك الحقبة، ولقد عاش معظم كبار الأبطال والقادة المشاهير في الخندقين المتنافسين قبل صلح الرملة الآنف الذكر. وفي تلك الحقبة كان النبض أغزر والتسارع أرشق. فحين تذكر الحروب الصليبية سرعان ما تتواثب في فسحة الخيال صور كل من صلاح الدين ورتشارد الأول ونور الدين وعماد الدين وأسد الدين شيركوه، وبلدوين الأول والثاني والثالث، وبهمند الأول وجوسلين الأول والثاني، وريموند الأنطاكي وريموند الطرابلسي وفريدريك بربروسا ولويس السابع وفيليب اوغست، وكذلك الأباطرة البيزنطيون الثلاثة: الكسيوس ويوحنا ومانويل. إن جميع هذه الشخصيات قد دخلت إلى مسرح الأحداث قبل صلح الرملة.

أما في الحقبة الثانية فالمعارك أقل، وعدد الأبطال أقل كذلك. وفي الحق أنه لايبقى من المعارك الصليبية الكبرى، أو المشهورة، سوى اثنتين وحسب: حصار دمياط (١٢١٨ - ١٢٢١) ومعركة المنصورة (١٢٥٠). ولا ريب في أن احتلال

المماليك للمدن الصليبية في سواحل الشام ما كان ليحتاج إلى نصف الجهد الذي بذله صلاح الدين ابتغاء استرجاع بيت المقدس.

* * *

ومن أهم الفروق الجوهرية بين الحقبتين أن القوى المناضلة في سوريا ومصر قد بذلت جهوداً جُلّى في سبيل انجاز وحدة عربية جزئية كفيلة بأن تكون حاملاً لامكانات التصدي والمقاومة، وذلك قبل أن تخوض معركة حطين وتبرم صلح الرملة. أما في الحقبة الثانية فكانت الدولة المتحدة شديدة الاستتباب باستثناء فترتين قصيرتين من التفكك الجزئي والمؤقت[١٩]. وثمة فرق آخر.

حين أبرم صلح الرملة كان الصليبيون في الشام قد وهنوا وهانوا إلى حد كبير، بحيث ما عادوا يحتاجون إلى اكثر من سلسلة من الضربات الصغيرة لكي تندرج كياناتهم الهزيلة في طي الغابرات. فقبل وفاة نور الدين (١١٧٤) كانت امارة الرها قد اندثرت تماماً. أما إمارة انطاكية فقد وهنت إلى حد بعيد، ولم يضمن لها البقاء والاستمرار إلا تبعيتها للدولة البيزنطية. وماتوفي صلاح الدين إلا بعدما صارت مملكة بيت المقدس اسماً بغير مسمى.

أما طرابلس فقد ثبت وهنها من ضآلة دورها في معركة حطين.

واضح، إذن، أن صلح الرملة قد كان بمثابة مفصل كبير في تاريخ الحروب الصليبية، لأنه اعتراف صريح من قبل الافرنج بعجزهم عن استرداد معظم المدن والأراضي التي احتلها صلاح الدين إثر معركة حطين.

أما أطوار الحقبة الأولى فثلاثة.

أولاً ـ طور المباغتة:

يبدأ هذا الطور ببداية الحروب الصليبية، وينتهي زهاء عام ١١٣٠، أو لنقل إن نهايته قد كانت بين سنة ١١٢٧ وسنة ١١٣١. وفي ميسور المرء أن يقدم

أرضية مقنعة لانهاء هذا الطور في تلك الآونة الدقيقة الحرجة التي لا غضاضة أبداً في تسميتها بالفاصلة الاستقلابية.

ففي عام ١١٢٧ تسلم عماد الدين زنكي قيادة الجبهة العربية، أو الاسلامية، في الموصل، ثم في حلب عام ١١٢٨، وزهاء هذا العام نفسه أخفق الافرنج في مداهمة دمشق، وكانوا قبل ذلك قد اخفقوا في مهاجمة حلب، بحيث ثبت أنهم سوف يظلون محصورين في الساحل وحده. وحتى وجودهم في الساحل قد اعتمد على المدد الدائم القادم من وراء البحار.

ثم ان الدول الافرنجية في الشام قد بلغت أقصى مدى لها في التوسع الجغرافي قبل وفاة بلدوين الثاني عام ١١٣١، إذ لم يضف إلى أراضيها شبر واحد من الأرض بعد هذا التاريخ، سوى مدينة عسقلان التي سوف يحتلونها عام ١١٥٣.

وفضلاً عن ذلك فقد انقرض الجيل الأول من قادة الحملة الصليبية الأولى خلال هذه الآونة. فلقد كان بلدوين الثاني وجوسلين الأول ـ وهما في الصناديد حقاً ـ من بين الذين ماتوا عام ١١٣١. وبينما كان الخندق العربي يفرز أعظم الرجال من أمثال عماد الدين وأسد الدين، راح الافرنج يوسدون شؤونهم لرجال هم في الغالب أغرار يفتقرون إلى الخبرة بالسياسة والحرب.

وهكذا انقلب الزمان ودارت دورته في مدة لا تزيد كثيراً عن ثلاثين سنة.

ثانياً ـ طور الدولة السورية:

يبدأ هذا الطور مع بداية نشاط عماد الدين وينتهي عام ١١٦٩، يوم تمكن الأيوبيون من السيطرة على مصر وضمها إلى الخندق العربي.

ويتميز هذا الطور بمزيتين كبريين: أما أولاهما فتأسيس الدولة السورية وتطويرها على أيدي الزنكيين؛ وأما ثانيتهما فاحتدام الصراع والتناحر الدموي على نحو لم يؤلف من قبل. فقد برهنت هذه الحقبة على أن الدولة السورية

الناشئة لها القدرة الكافية على أن تنتزع من الافرنج مدناً وحصوناً لم يقدر الطور الأول على انتزاع مثلها أبداً. فلقد استطاع زنكي أن يعدم الوجود الافرنجي إلى الشرق من نهر الفرات باحتلاله مدينة الرها. كما استطاع أن يطهر معظم مجرى العاصي من القوات الغازية. أما ابنه نور الدين فقد خاض ضد الصليبيين بعض المعارك الكبرى التي تعجز عن مثلها القوى الصغرى المتحركة على مساحة الطور الأول كله. ومثال ذلك معركة حارم الحاسمة (١١٦٤).

والأهم من هذا كله أن التصدي للعدو في الطور الأول قد كان بمثابة غزوات تفتقر إلى التسلسل الاستراتيجي المخطط سلفاً والهادف إلى أن تفضي الخطوة الراهنة افضاءاً ضرورياً إلى الخطوة اللاحقة، بحيث يمكن انجاز أغراض تحريرية بعيدة المدى. أما في الطور الثاني فقد صار توحيد سوريا غاية استراتيجية شديدة الوضوح في سياسة زنكي، وذلك لأول مرة في تاريخ الحروب الصليبية، كما صار توحيد سوريا ومصر هدفاً كبيراً في سياسة نور الدين. وليس ثمة أي دليل على أن هاتين الغايتين الاستراتيجيتين قد خطرت أية منهما على بال أي قائد من قادة الخندق العربي الاسلامي في الطور الأول المقتصر على الدفاع والغزوات الآنية[٢٠].

وعلى المستوى العسكري الخالص اقتضت خطة زنكي أن يبدأ بإبادة الوجود الافرنجي إلى الشرق من نهر الفرات، وكذلك إلى الشرق من نهر العاصي، وأن يتخذ من هذين النهرين حدين طبيعيين للموصل وحلب، مما يحمي قواته من أية مفاجأة هجومية كبرى، ومما يؤمن لهذه القوات (الصغيرة العدد، ولكن الجيدة التدريب، المتميزة بكفاءة عالية على القتال) مراكز انقضاض حصينة على الكيانات الافرنجية غرب الفرات وغرب العاصي. وقد ثبت اجرائياً أن هذه الاستراتيجية ممتازة في عصر نور الدين الذي استرد الكثير من الحصون والمدن غرب الفرات، وسار مع العاصي حتى وصل أسوار انطاكية، كما أسر وقتل العديد من أمراء الافرنج في الكثير من المعارك الحارة الحاسمة.

ولقد تميز هذا الطور بانجازات حضارية جلى، أهمها تطوير العمارة والتعليم والطب والمحاكم العادلة، وكذلك تحرير الاقتصاد السوري من كل ما يعرقل نموه، ولا سيما المكوس والضرائب التي كادت أن تشل حركة التجارة قبل عهد نور الدين.

ثالثاً ـ طور الوحدة والاقتحام:

ويبدأ هذا الطور باستيلاء صلاح الدين على السلطة في مصر (١١٦٩) وانهاء الخلافة الفاطمية (١١٧١). ويمتد حتى صلح الرملة.

ومن الواضح أن هذا الطور قد شهد من التحولات الجذرية مالم يشهده الطوران السابقان. فلقد اتحدت سوريا ومصر والجزيرة وبرقة والنوبة واليمن والحجاز في دولة واحدة يقودها سلطان واحد. وهبت لتدافع عن هويتها، أو نمط انكشافها التاريخي. فتكامل الخندق الشرقي المواجه لأوروبا، بحيث صار يتألف من ثلاث نقاط تطل على البحر المتوسط: دولة سلاجقة الروم في الأناضول، والدولة الايوبية في مصر والشام، ودولة الموحدين في المغرب والأندلس. ولقد كان هذا الخندق الشرقي متناقضاً بالفعل، ولكن الخندق الاوروبي كان متناقضاً هو الآخر.

ولقد تفاقم الصراع في هذا الطور على نحو لم يؤلف من قبل ولا من بعد، فقد بلغت الحروب الصليبية ذروتها خلال السنوات الخمس التي سبقت صلح الرملة مباشرة. وفي هذا الطور استعيدت فلسطين برمتها خلال ثلاثة أشهر. وهذا حادث قد حدث لأول مرة طوال الحروب الصليبية.

الحقبة الثانية:

تقسم هذه الحقبة إلى طورين متمايزين:

الطور الأول:

وهو طور متماوج طويل ومعقد، يبدأ بصلح الرملة وينتهي بوصول الظاهر بيبرس إلى السلطة عام ١٢٦٠.

ويتصف هذا الطور بصفتين: اولاهما تفكك الوحدة العربية مرتين، مرة إثر وفاة صلاح الدين، ومرة إثر وفاة الصالح نجم الدين عام ١٢٤٩. أما ثانيتهما فعنف الهجمات الافرنجية على مصر، بدلاً من الشام، أرض القتال التقليدية.

فلقد كان حصار الحملة الصليبية الخامسة لمدينة دمياط (١٢١٨ - ١٢٢١)، وكذلك خوض الحملة السابعة لمعركة المنصورة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، حدثين من أخطر الأحداث التي عرفتها مصر في تاريخها الاسلامي كله.

كما تميز هذا الطور، عن الأطوار السابقة، بظهور المغول الذين عرقلوا حركة التحرير والاسترداد. وتميز كذلك باسترجاع الصليبيين للقدس بحملة سلمية لم تعرف القتال. ثم استرداد الأيوبيين للمدينة المقدسة بعد معركة صغيرة.

الطور الثاني:

يمتد هذا الطور منذ وصول بيبرس إلى السلطة عام ١٢٦٠ وحتى سقوط مدينة عكا وانهاء الحروب الصليبية في أواخر القرن الثالث عشر.

وهو طور يسير على خط مستقيم فحواه الهجوم الدائم لدولة المماليك على الامارات الصليبية الواهنة واسقاطها الواحدة إثر الاخرى دون أن تتحرك اوروبا تحركاً حاسماً لامداد المدن المتهاوية. فلقد استطاع الملوك الثلاثة: بيبرس وقلاوون وخليل أن يدمروا الوجود الافرنجي في الشام خلال ثلاثين سنة على وجه التقريب. وقد أثبت هذا الطور أن القوة المغولية ذات شأن طفيف لم يقدم أي نفع فعلي لافرنج الشام. فقد باءت جميع الجهود التي بذلها المغول لمساعدة الافرنج بالاخفاق.

ليس بغـائب عن البـال أن هذا التحقيب في حاجـة ماسـة إلى مزيـد من التفـاصيـل، ابتغـاء تمييـز الحـدود بين الأطوار المتباينة. وهو في أسوأ أحواله يصلح كأسـاس لتحقيب أفضـل. ولكنـه، على أيـة حال، يبقى تحقيبـاً مرضيـاً ما دام التحقيب الأفضل ليس في متناول الأيدي حتى الساعة الراهنة.

الجيوش التسعة

استجاب الناس لنداء البابا أوربان الثاني في مدينة كليرمونت (تشرين الثاني، ١٠٩٥) وهم يصرخون قائلين: «هذه ارادة الرب». فالحقيقة أن الرجل قد استطاع ان يستنفر في الناس حسَّ الخطر الداهم، إذ جاء في خطابه أن الأتراك، إذا ما توانت أوروبا عن التصدي لهم على نحو عاجل، سوف ينتشرون أكثر فأكثر بحيث يهيمنون «على العبيد المخلصين للرب». فأبدى الناس من التحمس للمشروع أكثر مما توقع البابا، إذ لا ريب في أن ضرباً من الهوس الجمعي السري قد راح يتفجر في الشرايين أثناء تلك البرهة الخطيرة ذات السحر الخفي.

وغفر البابا خطايا المستجيبين لدعوته، وباركهم بعدما تأكد من شدة اخلاص نواياهم وصدق التزامهم بارادة الرب. وقبل ارفضاض المؤتمر عين البابا موعداً محدداً لبلوغ القوات إلى بيزنطة.

وفي مطالع السنة التالية (١٠٩٦)، اندفع ناسك فرنسي يسمى بطرس باتجاه الشمال يحث الناس على حمل السلاح والتوجه إلى الديار المقدسة. وقد كان هذا الرجل ذا الوجه المستطيل القبيح ـ كما تصفه المراجع الاوروبية ـ يتمتع بقوة سحرية يهيمن بها على الناس. وقد اعتاد أن يتحرك وهو يمتطي حمارا والجموع الغفيرة من خلفه أينما حل أو ارتحل. وفي الربيع وصل إلى مدينة كولونيا في ألمانيا، ومعه غوغاء وجياع قدرت المصادر المعاصرة عددهم بخمسين ألفاً.

وكـان في أتبـاعـه الفرنسيين رجل يسمى ولترسان أفوار (أي ولتر المفلس). وفي كولونيا قرر هذا المفلس أن يسرع في التوجه إلى القدس مصحوباً بحشد كبير من الحجاج الفرنسيين. فكان هذا أول جيش صليبي على لاطلاق، وأول جيش من الجيوش الشعبية الخمسة التي افتتح بها الزحف الصليبي.

ووصل ولتر إلى هنغاريا في أيار من السنة نفسها. وسمح لهم كولومان ملك هنغاريا بعبور بلاده، بل تبرع لهم ببعض المؤونة أثناء سيرهم فيها. ولكن جماعة منهم فقدت صوابها وداهمت السوق في احدى المدن الهنغارية الجنوبية ونهبته على نحو مشين، فتصدت السلطة المحلية لهذه الجماعة وأسرت أفرادها، وانتزعت منهم أسلحتهم وثيابهم، ثم بعثت بهم عراة إلى بلغراد. ولكن هذه المجموعة الغوغائية البائسة لم تكف عن الفساد، إذ راحت تمارس النهب على الفلاحين في الطريق، فعـادت السلطـة الـرسميـة وتصـدت لهم مرة ثانيـة وقتلت عدداً كبيراً منهم. وفر بعضهم إلى احدى الكنائس، فما كان من السلطات إلا أن أحرقت الكنيسة على من فيها دون رحمة أو شفقة.

ثم استتب الأمن مرة أخـرى، فتـابع جيش المفلس رحيله حتى وصل إلى مدينـة قسطنطـين مصحـوباً بقوات بيزنطية رسمية وظيفتها صيانة النظام والحفاظ على الأمن..

وتحـرك الجيش الشعبي الثـاني بقيـادة بطـرس النـاسـك نفسـه، وسار فوق الـدرب التي طرقهـا المفلس من قبـل. وكـان هذا الجيش أضخم من سابقه عدداً وعـدة، ويضم الكثـير من محترفي القتـال المفلسـين، كما يضم الكثـير من أبنـاء العـائـلات الألمـانيـة المـرمـوقة. وكانت لبطرس إوزة تسير أمام الجيش وتدله على الطريق إلى «مدينة الله»، «بارادة الله».

ودخـل الجيش الأراضي الهنغـارية، ورحب به الملك كولومان، وفقاً لطبعه الكـريم. وعندمـا وصـل القوم إلى المدينة الهنغارية التي قتل فيها أصحاب ولتر، وشـاهـدوا جثث المشنـوقـين على أسـوار المـدينـة، هاجوا وماجوا وداهموا الأسواق

وأعملوا فيها الذبح والنهب. وبعدما قتلوا أربعة آلاف من السكان هربوا مسرعين إلى داخل الحدود البيزنطية. وتصدى لهم بعض الجنود وهم يعبرون الحدود، فانقضوا على الجنود وأبادوهم عن بكرة أبيهم.

ووصلت أخبار المجزرة إلى بلغراد، ففر الناس إلى الجبال وتركوا مدينتهم خاوية لينهبها رجال بطرس وليشعلوا فيها الحرائق على نحو هيجي لا يرضاه الضمير. ثم حملوا غنائمهم وارتحلوا عبر الغابات إلى مدينة نيش، في بلاد الصرب، حيث تفجر غضبهم من جديد، فتشاجروا مع بعض السكان وأخذوا يشعلون الحرائق في أطراف المدينة. وفي هذه اللحظة تصدى لهم الجهاز الأمني، ودارت أرحاء معركة ضارية بين الفريقين اشتركت فيها قطعات عسكرية بيزنطية كبيرة، فقتل الكثير من «جنود الرب»، وأُسرت أعداد كبيرة جداً تضم بعض النساء والأطفال. أما بطرس فقد تخلى عن ممتلكاته لشدة خوفه، وهرب إلى الجبال مصحوباً بخمسمائة رجل من أتباعه. ثم تبعه بضعة آلاف آخرين فتوجهوا جميعاً نحو بلغاريا، وتبين لهم أن ربعهم، على الأقل، قد أُبيد أو أُسر.

وبادر الامبراطور الكسيوس وأرسل إلى بطرس رسالة ودية للترحيب بالناسك المشهور.

ولكنهم عندما وصلوا بيزنطية أخذوا يسرقون البيوت والكنائس. وكان بطرس يلح على الامبراطور كي يتيح لقواته فرصة عبور البوسفور إلى الشاطىء الآسيوي ليقاتل «الكفار». ومع ذلك فقد نصحه الكسيوس بالانتظار ريثما تصل الجيوش النظامية. وحاول الامبراطور أن يقنع الناسك بأنه لا يعرف الحرب ولا الأتراك، وبأن هذا الجيش الشعبي ليس شيئاً ذا بال أمام خيالة التركمان الخفيفة الرشيقة. ولكن بطرس ركب رأسه وأصر على العبور، فنقلتهم السفن إلى معسكر بني على الشاطىء الشرقي لبحر مرمرة. وهناك التقوا بجيش ولتر المفلس.

ترك بطرس قبل دخوله إلى الأراضي الهنغارية ثلاثة من أتباعه لينظم كل منهم جيشاً شعبياً ويقوده إلى «مدينة الله» لينضم هناك إلى «قوات الرب».

واستطاع رجل يسمى فولكمر أن يحشد جمعاً غفيراً من الغوغاء، وأن يدخل بهم الأراضي الهنغارية. وهناك أخذ بالاعتداء على اليهود وأعمل فيهم القتل. ولكن الملك كولومان قد استاء من هذا التصرف الاجرامي ضد بعض رعاياه، ولهذا فقد تصدت القوات الهنغارية للكاهن المجرم وقتلت الكثير من رجاله، وأسرت قسماً منهم.

ويبدو أن هذا الجيش الثالث قد تشتت وانقطعت أخباره، إذ ما من مصدر معاصر يشير إلى ما آل اليه.

وتحرك الجيش الرابع بقيادة كاهن آخر يسمى غوتز شولك. وقبل أن يدخل الجيش الأراضي الهنغارية أغار في مدينة راتسبون على الأحياء اليهودية وأعمل فيها السيف. أما في هنغاريا نفسها فقد راحوا ينهبون الأرياف ويعيثون فساداً في كل مكان حلوا ضيوفاً على أهاليه. وفي ساحة احدى القرى قتلوا رجلاً على الخازوق وهم يحيطون به مبتهجين بانتصار «ارادة الرب». فطفح الكيل بالملك الهنغاري اللطيف الصبور، وأرسل قواته، واشتبكت مع هذا الجيش الناري المزاج، والذي لا قبل له بمواجهة الجيوش النظامية. فما كان من «جنود الرب» إلا أن فروا لينجوا بأرواحهم، ولكن قوات الملك طاردتهم وأبادتهم عن بكرة أبيهم، بما في ذلك قائدهم غوتز شولك.

وأما الجيش الشعبي الخامس، وهو أكثر هذه الجيوش ولعاً بالدم البشري، إذ ارتكب بحق اليهود أبشع المجازر التي عرفتها تلك البرهة. فقد تحرك هذا الجيش من المانيا بقيادة امش، كونت ليزنغن. ووصل إلى مدينة ورمز الألمانية وهاجم فيها حي اليهود وقتل خمسمائة انسان. ثم دخلوا مدينة منز، وهي ألمانية أيضاً، فدفع لهم اليهود بضعة أرطال من الذهب مقابل أرواحهم. ولكن امش أخذ ذهب اليهود ثم أعمل السيف في رقابهم طوال يومين كاملين، فقتل منهم ألف

إنسان. ورضيت فئة قليلة من اليهود أن تتحول إلى النصرانية كي تنجو بجلود أفرادها. وعبثاً حاول رجال الدين المسيحيين أن يحموا اليهود في ورمز ومنز من هوس امش ورجاله المرورين المصابين بنوبة جنون ديني.

وقد سبق لامش هذا أن دخل مدينة سبير، قبل ورمز ومنز، وقتل اثني عشر يهودياً. وعندما حاول رجاله أن يغتصبوا بعض النساء اليهوديات، فقد آثر هؤلاء النسوة الانتحار على العار.

وقد حدثت هذه المجازر الثلاثة في شهر أيار من عام ١٠٩٦.

كان الجيش الخامس، بقيادة امش، اكبر عدداً من أي من الجيشين السابقين. وعندما وصل إلى الحدود الهنغارية رفض الملك كولومان أن يسمح لهذا الجيش الناري الطبع أن يدخل إلى بلاده. فدار قتال مرير على الحدود البلغارية بين جيش امش وبين القوات الملكية. وهزم الجيش الهنغاري في بداية الأمر أمام هذا الطوفان الألماني الكبير. غير أن قوات كولومان سرعان ما استجمعت فلولها وانقضت من جديد على الصليبيين وأعملت السيف في رقابهم، فمات الكثيرون وأسر الكثيرون، وفر امش مع نفر قليل من رجاله.

إذن، ابيدت ثلاثة جيوش شعبية في المجر، فلم يصل إلى بطرس، في آسيا الصغرى، من رجاله المحشودين خلفه، ولو مجموعة صغيرة، في أغلب الظن[٢١].

ولا ريب في أن بطرس متهور وجاهل بشؤون الحرب السياسة، فلم يستفد من النصائح التي وجهها اليه الكسيوس الحكيم الخبير بالجيوش وأمور القتال.

بدأ بطرس عملياته الحربية في الأناضول بالاغارة على القرى المجاورة ونهبها وقتل من أمكن قتله من سكانها. وفي الحق أن هذه القرى الخاضعة للأتراك مأهولة بسكان من البيزنطيين المسيحيين. والأحمق من هذا أن الفرنسيين في معسكر بطرس قد زحفوا حتى كادوا يصلون إلى العاصمة التركية، نيقية. وهناك أغاروا على القرويين المسيحيين وأعملوا السيف في رقابهم وأحرقوا بالنار حشوداً من أطفالهم. ثم عادوا مبتهجين إلى معسكرهم ليتمتعوا بغنائمهم الوفيرة.

وقلدهم الألمان والايطاليون بحملة مماثلة، وصلت إلى احدى القلاع الخاوية على عروشها وأقامت فيها، ثم أخذت تغير على القرى المجاورة، إذا لم تكن قرى مسيحية هذه المرة. وحين تصدت لهم القوات التركية فروا إلى القلعة.

فما كان من هذه القوات إلا أن حاصرت المكان. واستمر الحصار ثمانية أيام. وكابد الافرنج العطش الشديد. فما كان من قائدهم، واسمه رينالد، إلا أن عرض على الترك تسليم القلعة ومن فيها. فوافق الترك، وعرضوا الاسلام على الافرنج. ونجا الذين قبلوا الاسلام وقتل الباقون. وكان رينالد من بين الذين أسلموا فبيعوا في الأسواق. حدث هذا في أيلول عام ١٠٩٦.

ثم تقدم الأتراك من معسكر بطرس، الذي كان في بيزنطة يومذاك. وخرج بعض المتهورين من الافرنج لملاقاة «الكفار»، ولم يبق في المعسكر سوى النساء والأطفال والشيوخ. ونصب الأتراك للافرنج كميناً في احدى الغابات، والاتراك شعب يجيد الكمائن على نحو نادر. واستطاع هذا الكمين أن يفاجيء «جنود الرب» وأن يقتل منهم عدداً جماً من الرجال. ولاذ الباقون بالفرار صوب المعسكر. ولكن الاتراك لاحقوهم وطاردوا فلولهم إلى داخل المعسكر، حيث أعملوا السيف في رقاب الجميع دون أن يرحموا طفلاً أو امرأة أو شيخاً، اللهم إلا من وقعوا في الأسر ليصيروا إلى العبودية، أو من فروا إلى قلعة مجاورة حصينة كانت على ساحل البحر.

وهاجم الأتراك القلعة ولكنها صمدت في وجوههم بعد أن حصنها الافرنج بالمتاريس والحجارة. ووصلت بعض السفن البيزنطية فأنقذت المحصورين وعادت بهم إلى مدينة قسطنطين، بعدما خلفوا وراءهم جثث الكثير من رجالهم، وبينها جثة ولتر المفلس نفسه.

وهكذا قضي على الجيوش الشعبية الخمسة، وجاء دور الجيوش النظامية الأربعة.

كان هيو فرمندوا، الأخ الأصغر لفيليب الأول، ملك فرنسا، أول من بلغ

إلى بيزنطة من ملوك اوروبا وامرائها. وبينما هو يعبر الادرياتيك تعرضت سفنه لعاصفة فحطمتها وقضت على حملته الصغيرة. أما هو فقد وصل إلى العاصمة حيث عومل بوصفه واحداً ممن يتميزون بالدم الملكي. وهناك قدم يمين الولاء للامبراطور.

ثم وصل غودفري دي بويون، أمير اللورين الأدنى، وبويون هو اسم قصره الذي ينتسب إليه. وكان مع غودفري أخواه يوستاس وبلدوين، كما كان معه ابن عمه بلدوين دي بورغ. وكانوا يقودون جيشاً يتألف من أربعين ألفاً، بينهم عشرة آلاف فارس. وعبروا المجر بسلام، ولكنهم أخذوا يثيرون المتاعب بمجرد دخولهم إلى الأراضي البيزنطية. ولكنهم وصلوا إلى مدينة قسطنطين بسلام، وخيموا على القرن الذهبي، في الثالث والعشرين من كانون الأول عام ١٠٩٦. وكان هذا أول جيش صليبي يصل إلى بيزنطة قادماً من اللورين في الطرف الشمالي لفرنسا.

ورفض غودفري في البداية أن يقسم يمين الولاء للامبراطور، وكذلك رفض أخواه وابن عمه. وأخذ أمير اللورين هذا يهاجم القرى وينهبها، ويصطدم بجنود مرتزقة من البشناق كانوا يخدمون الامبراطور. وذات يوم هاجم غود فري (أو نعمة الله) أحد أبواب القسطنطينية بضراوة. فتصدى له الجيش الامبراطوري الذي ألحق بالفرنسيين هزيمة منكرة. وسرعان ما راح غود فري واخواه وابن عمه وجميع أكابر جيشه يقسمون يمين الولاء للإمبراطور.

أما الجيش الثاني فقد وصل إلى بيزنطة بعدما قدم الفرنسيون اليمين للعاهل البيزنطي. وقد جاء هذا الجيش من جنوب ايطاليا، وهو يتألف من النورمانديين الذين سبق لهم ان جاؤوا من فرنسا إلى اقليم ابوليا الايطالي. وكان يقوده بوهمند، وهو ابن الامير روبرت جويسكارد، الذي سبق له أن اشتبك، بصحبة ابنه بوهمند، مع الدولة البيزنطية في حرب ضروس. ولكن بوهمند لم يمتنع ولم يتردد فيما يخص يمين الولاء للعاهل البيزنطي.

ثم وصل إلى مدينة قسطنطين اكبر جيش بين الجيوش الأربعة. وقد جاء هذا الجيش من مدينة تولوز في جنوب فرنسا. وكان يقوده الكونت ريموند سانت جيل، وسانت جيل هو اسم قصره الذي ينتسب اليه. وجاء مع هذا الكونت، أسقف يسمى أدهمر، اعتمدته الحملة ممثلاً للبابا. والحقيقة أن جميع القادة السابقين كانوا في أوج الشباب، إلا ريموند هذا فقد كان في الستين من عمره.

وما ان دخل الكونت إلى الأراضي البيزنطية حتى أخذ رجاله يثيرون المتاعب، باعتدائهم على الناس ونهبهم للقرى. وعند ديراخيوم تصدت لهم قوة بيزنطية كبيرة واشتبكت معهم في قتال مرير، فهزم الافرنج أشنع الهزائم، ولكنهم وصلوا إلى بيزنطة في نيسان (١٠٩٧)، فوجدوا قوات بوهمند قد عبرت البوسفور إلى الساحل الآسيوي.

وجاءت من شمال غرب فرنسا ثلاث قطع عسكرية أخرى يقودها ثلاثة امراء صغار هم روبرت فلاندرز، وروبرت أمير نورماندیا، والكونت ستيفن، أمير بلوا. وكان عدد هذه القطعات الثلاث مجتمعة زهاء عشرة آلاف جندي. وبوصولها إلى بيزنطة كانت الحملة الصليبية الأولى قد تكاملت، وأصبحت جاهزة للاشتباك مع الأتراك، بعدما أقسمت يمين الولاء للامبراطور.

هذا وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في تقديرهم لاعداد الحملة الصليبية الأولى. فمن قائل يزعم بأنهم ستمائة ألف، إلى قائل خفض هذا الرقم حتى النصف، فثالث يختزله ليصير مائة ألف أو زهاء ذلك.

ولحسن الحظ أن المؤرخة البيزنطية، آنا كومنينا، ابنة الامبراطور الكسيوس نفسه، وهي المولودة في الغرفة الارجوانية، أي ابنة الزوجة الملكية الشرعية، قد عاصرت الحملة الصليبية وشاهدت القوات الفرنجية، وكذلك قادتها، بام عينها، وهي لم تزل في طور المراهقة يومذاك. وحين كتبت «الألكسياد»، وهي السيرة الشخصية لوالدها الكسيوس، فقد تحدثت عن «هيجانات» بشرية نادرة المثال في التاريخ، وكذلك عن شعوب همجية تغادر أوطانها وترحل صوب الشرق،

مصحوبة بنسائها وأطفالها وشيوخها وحيواناتها وأثاث بيوتها. كما أمعنت في الحديث عن تخلف الافرنج وهمجيتهم وجشعهم المحموم وميلهم الشديد إلى جمع الأموال بأية وسيلة كانت[٢٢].

وهذه بينة لا لبس فيها على أن أعداد الافرنج قد كانت شديدة الضخامة. وإذا ما أُخذ الأطفال والنساء والشيوخ في الحسبان، فان عدد أفراد الحملة الصليبية الأولى لم يكن يقل كثيراً عن ستمائة ألف، وهو رقم ثبته أحد رواة الأخبار من اللاتين الذين رافقوا الحملة في مسيرها إلى الشرق.

طور المباغتة

عبرت الجيوش الصليبية البوسفور بعدما اتفق امراؤ ها مع الكسيوس على أن اية مدينة يحتلها الافرنج ينبغي اعادتها إلى الامبراطورية البيزنطية، شريطة أن تكون هذه المدينة من المدن التي انتزعها السلاجقة من أيدي البيزنطيين منذ عهد قريب.

وزحفت هذه الجيوش وحاصرت مدينة نيقية، عاصمة سلاجقة الروم. وكان السلطان قليج أرسلان غائباً عن عاصمته يومذاك، إذ كان مشغولاً بالحرب في كبادوكيا (وهي اقليم في الشمال الشرقي من الأناضول) ضد اسرة تركية تسمى الدانشموند كانت تسيطر على ذلك الاقليم. وحين علم السلطان بأن الافرنج قد حاصروا عاصمته، عقد هدنة مع الأمير الدانشموند، وعاد إلى بلاده. وحاول أن يفك الحصار عن المدينة ولكنه أخفق، فما كان منه إلا أن انسحب على رأس جيشه باتجاه الشرق.

وفوجيء الافرنج حين شاهدوا العلم البيزنطي يرفرف فوق أسوار نيقية. وهذا يعني أن سفراء السلطان قد تدبروا الأمر بحيث يتسلم البيزنطيون المدينة سلماً، شريطة أن تصان الارواح. واستاء الافرنج من هذه المؤامرة التي تمت من وراء ظهورهم، ولكنهم كتموا مشاعرهم وتابعوا سيرهم صوب الشام.

وقد استمر حصار نيقية منذ السادس من أيار وحتى الثامن عشر من حزيران، عام ١٠٩٧.

ووصل بوهمند وجيشه إلى مدينة دوريليوم، وخيم هناك. وفي صباح الثلاثين من حزيران داهم السلاجقة جيش بوهمند على حين غرة، وكادت الدائرة أن تدور على النورمنديين. ولكن بوهمند أرسل رسولاً يبلغ النبأ إلى بقية الافرنج. وبالفعل وصلت القوات الصليبية إلى المكان قبل فوات الأوان. وقاد الأسقف أدهمر قطعة من الخيالة وانقض بها على الأتراك من الخلف، بينما راح ريموند (الذي سوف يسميه المؤرخون العرب الصنجيل) يواجههم من الأمام مع قوات بوهمند. فسحق الأتراك وولوا الأدبار، بعدما خلفوا وراءهم الكثير من الغنائم وجثث القتلى.

ولكنهم أخذوا يحرقون المزروعات ويخربون القرى التي سوف يمر بها الافرنج، مما أسفر عن مجاعة في صفوف الغزاة. وكابد الصليبيون العطش، واصيب الكثيرون منهم بالمرض، ولا سيما الصنجيل الذي همده الداء، فأشرف على الموت. بل أخذ الموت يجتث الافرنج بأعداد كبيرة، إذ اجتمع عليهم الحر والمرض والجوع والظمأ.

وأخلى الأتراك مدينة قونية من السكان، ولكنهم لم يخربوها قبل أن يغادروها، ولهذا فقد وجد فيها الغزاة من المياه والأرزاق ما من شأنه أن يخلصهم من الجوع والظمأ. فالمدينة واحة في سواء صحراء قاحلة، ذات بساتين وأفياء منعشة.

وسرعان ما غادر الافرنج هذه الجنائن الخصيبة ليثابروا على السير باتجاه الشام. وعندما وصلوا إلى مدينة هرقليا التي لا تبعد أكثر من خمس عشرة كيلومتراً عن قونية، فقد انقض عليهم الأتراك بخيولهم الرشيقة السريعة الحركة. ولكن الصليبيين ثبتوا للهجوم وصدوه، بل لقد دارت الدائرة على الأتراك من جديد، فهزموا شر هزيمة.

وهكذا أصبحت الطريق إلى الشام مفتوحة أمام غزاتها القادمين من الغرب. فوصلوا إلى مكان يسمى بوابة كيليكيا، أو بوابة سوريا. وهناك انفصل عنهم تنكرد، وهو ابن أخت بوهمند، وكذلك بلدوين شقيق غود فري. وكان جيش تنكرد صغيراً لا يزيد عن ثلاثمائة جندي. وأما جيش بلدوين، الذي رافقه

ابن عمه بلدوين دي بورغ، فيتألف من خمسمائة فارس والفين من جنود المشاة.

واستولى تنكرد على مدينة طرسوس في اقليم كيليكيا بعد قتال شديد مع الأتراك. وحين وصل بلدوين طلب إلى تنكرد أن يسلمه المدينة، فما كان من هذا الأخير إلا أن أذعن لمطلب رجل أقوى منه، وأسلم طرسوس على مضض، ثم غادرها متجهاً صوب الشرق. غير أن بلدوين سرعان ما تنازل عن هذه المدينة لقرصان افرنجي جاء مغامراً إلى كيليكيا حين سمع بأنباء الصليبيين واقترابهم منها.

وبعد ذلك غادر بلدوين مدينة طرسوس وسار على الدرب التي سلكها تنكرد من قبل، فلحق به في المصيصة، وهي بلدة قرب أضنة، وهناك أغارت كتيبة تنكرد على كتائب بلدوين، ولكن هذه الكتائب كانت أقوى واكبر عدداً، فصدت الهجوم، ثم شردت تنكرد ورجاله. غير أن كبار قادة الحملة الصليبية قد تدخلوا في الأمر وارغموا الطرفين على قبول الصلح.

و انفصل بلدوين بكتائبه عن القوة الأساسية للزحف الصليبي، واتجه شرقاً حتى عبر الفرات عند جرابلس، متحركاً داخل أقاليم مأهولة بالأرمن، وهم اناس يمقتون الأتراك ويتمنون التحرر من نيرهم الباهظ. وفرح الأرمن بوصول الافرنج الذين رأوا فيهم نجدة لهم، فثاروا على الأتراك ثورة عارمة أبادت الكثير من رجالهم.

ووصل بلدوين إلى الرها (وهي اديسا اليونانية ـ الرومانية، واورفا الحالية)، واستقبله أميرها توروس الأرمني بالترحيب، بل اتخذه ابناً له، وأشركه في حكم الامارة. ولكن بلدوين الخبيث الغدار قد عمل في الخفاء على تحريض بعض القوى ضد توروس، فحاصره المتمردون في القلعة حصاراً لا نجاة له منه.

وما كان من بلدوين إلا أن نصحه بالاستسلام للمتمردين، ووعده بالسلامة. فاعتقل توروس وزج به في السجن. وعندما حاول الأمير المسكين أن يهرب من

سجنه، اكتشف امره فقتل. وهكذا أصبح بلدوين، بين عشية وضحاها، حاكماً مطلقاً على الرها.

بيد أنه سرعان ما أخذ يعامل الأرمن كما لو أنهم عبيد له. فأُسقط في أيديهم، وادركوا أن الترك أرأف بهم من الافرنج. وثار الأرمن على حلفاء الأمس، ولكن بلدوين الغدار فتك بهم وقمع ثورتهم وملأ السجون برجالهم، وسمل عيوناً وجدع انوفاً، وقطع الكثير من الأيدي والأرجل، وشرد من لم يستطع القبض عليه من الثائرين. وبذلك استتب له الأمر، فأسس أول كونتية (امارة) صليبية في الشرق.

أما القوة الصليبية الأساسية فقد تابعت سيرها حتى وصلت إلى أسوار انطاكية في الحادي والعشرين من تشرين الأول عام ١٠٩٧. وضربت الحصار على المدينة التي كان على رأسها أمير تركي اسمه ياغي سيان. وصمدت المدينة للحصار بانتظار نجدة تصل من السلطان في أصفهان، أو من بعض الملوك في الشام والجزيرة.

وبالفعل جاءت نجدة كبيرة من دمشق. وبينما كانت في طريقها إلى أنطاكية التقت بفرقة للافرنج قوامها عشرون ألف فارس، يقودها بوهمند الذي خرج ليجمع الأقوات من الأرياف المجاورة. والتحمت هذه النجدة مع جيش بوهمند قرب بلدة البارة (الى الغرب من حلب)، وذلك في الحادي والثلاثين من كانون الأول عام ١٠٩٧، ودارت الدائرة على جيش دمشق، فتراجع صوب مدينته، وتخلى عن فكرة انقاذ انطاكية.

وفي قلب الشتاء تفشت المجاعة في الجيش الافرنجي المصمم على انتزاع المدينة من الأتراك. وأخذ كثير من الجنود يهربون، وكان من بين الهاربين بطرس الناسك نفسه، ولكن أمره اكتشف بسرعة، فأعيد إلى المعسكر رغم أنفه.

وفي شباط من عام ١٠٩٨، خرج جيش من حلب بغية امداد أنطاكية وانجادها ضد الافرنج. ولكن بوهمند التقى بهذا الجيش على ضفاف العاصي،

ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس هزم في نهايتها جيش حلب شر هزيمة، فانكفأ راجعاً إلى مدينته لا يلوي على شيء. وأثبت بوهمند أنه اكفأ قادة الصليبيين وأبسلهم واكثرهم مبادرة وقدرة على الحركة.

وفي آذار وصل اسطول انجليزي إلى ميناء السويدية الواقع إلى الغرب من أنطاكية على مسافة عشرين كيلومتراً. وكان هذا الاسطول مشحوناً بوسائل الحصار وبرجال خبراء بشؤون اقتحام الأسوار، والأهم من ذلك أن السفن مملوءة بمؤونة تبرع بها القبارصة للافرنج. وحاول الأتراك أن يحولوا دون وصول هذه الامدادات إلى الصليبيين، فقطعوا عليها الطريق البري الواصل بين أنطاكية والسويدية. ولكن الغزاة تصدوا للأتراك وشتتوا شملهم وقتلوا منهم بضع مئات من الجنود. وبذلك وصلت الامدادات إلى المعسكر الافرنجي.

وتتابعت المؤونة تصل إلى الصليبيين من قبرص، مشحونة على سفن الجنويين الذين قدموا اكبر اسهام بحري لنجاح الافرنج حول أسوار انطاكية، بل لولاهم ولولا بعض المدن الايطالية الأخرى لما سقطت أية مدينة في سواحل الشام.

أما أنطاكية فقد تفشّت فيها المجاعة إلى حد فظيع. ومع ذلك، فان بعضاً من رجال الصليبيين قد أخذوا يفرون من المعسكر. وكان بين الفارين ستيفن، كونت بلوا، زوج أديلا، ابنة وليم الفاتح (وسمي الفاتح لأنه فتح انجلترا عام ١٠٦٦). وفر معه جنوده القادمون من شمال فرنسا، بعدما تواترت الأخبار بأن كربوغا، أمير الموصل، قد كان في طريقه لانجاد أنطاكية.

بيد أن بوهمند كان قد دبر مؤامرة مع قائد من قواد ياغي سيان، وهو أرمني الأصل، واسمه فيروز، وقد كان مسيحياً وأسلم. وتقتضي المؤامرة أن يسمح فيروز لقوات بوهمند بتسلق الأسوار ليلاً، عند برج يسمى برج الأختين، فيدخلون المدينة ويفتحون أبوابها لبقية الافرنج. وبالفعل نفذ الاتفاق في الثالث من حزيران، فدخل الصليبيون أنطاكية وقتلوا جميع من فيها من الأتراك دون أن

يتستثنوا الأطفال. أما ياغي سيان فقد هرب، ولكن جواده كبا به خارج الأسوار فسقط على الأرض ومات.

والحقيقة أن الافرنج لم يرحموا المسيحيين في أنطاكية، بل ذبحوهم دون رحمة، كما لو كانوا أتراكاً. وهكذا اكتظت الشوارع بالجثث المنتنة بحيث صارت الروائح الكريهة تزكم الانوف.

لقد تأخر كربوغا في انجاد انطاكية، لأنه أضاع شطراً كبيراً من الوقت في محاصرة الرها، التي صمدت أمامه بقيادة بلدوين صموداً رائعاً، فغادرها كربوغا يائساً من فتحها وتابع زحفه غرباً حتى وصل أنطاكية بعد سقوطها في أيدي الافرنج بقليل. ولكنه حين ضرب عليها الحصار صار وضعها حرجاً إلى حد بعيد.

وفي الثامن والعشرين من حزيران خرج الافرنج من وراء أسوار المدينة ليخوضوا معركة فاصلة ضد جيش الموصل، إذ رأوا أن ذلك أفضل من البقاء محصورين داخل الأسوار لمدة طويلة. وأشار كبار الضباط في معسكر كربوغا على أميرهم أن يداهم أبواب المدينة بعدما يخرج منها نصف الجيش الافرنجي وحسب. فالهجوم على الأبواب سوف يرغم القوم على اغلاقها، وبالتالي على أن يبقى زهاء نصفهم داخل الأسوار، وعند ذاك يستفردون بالشطر الذي خرج فيبيدونه عن بكرة أبيه، ثم يضربون الحصار على البقية الباقية منهم في المدينة ويرغمونها على الاستسلام.

ورفض كربوغا الرأي وركب رأسه، وأصرَّ على السماح لهم جميعاً بالخروج ليصار إلى إبادتهم دفعة واحدة والتخلص من شرهم مرة واحدة. واحتج كربوغا بأن مقاتلتهم على دفعتين من شأنها ان تطيل أمد الحرب، فيصاب جنوده بالسأم ويطالبون بالعودة إلى ديارهم. ولكن امير الموصل قد فاته أن يتعظ بالانتصارات الساحقة التي أحرزها الصليبيون في الأناضول. فما داموا قد هزموا جيش قليج ارسلان الممتاز، فلماذا لا يهزمون كربوغا وجيشه، حتى لو كان جيش الموصل عظيم القدرة على خوض الحرب؟

وخرج الافرنج من المدينة في الثامن والعشرين من حزيران، واقتتلوا مع كربوغا، وهزموه هزيمة منكرة، فقفل عائداً إلى الموصل. وهكذا صارت انطاكية حصة الافرنج.

ولكن الصليبيين سرعان ما اختلفوا على من سيكون حاكم المدينة، مع ان اتفاقهم مع الكسيوس يقضي بتسليم انطاكية للبيزنطيين. وتشاجر ريموند الصنجيل وبوهمند على الفريسة. وبعد طول جدال ولجاج آل أمر المدينة المفتوحة إلى بوهمند. وهكذا تأسست الكونتية (الامارة) الصليبية الثانية في الشرق. ولكن الامبراطور البيزنطي لم يعترف باستقلال هذه الامارة، وظل ينظر إلى كونت انطاكية بوصفه تابعاً من أتباعه.

وبعد فترة استراحة واستجمام، راح الغزاة يزحفون جنوباً، فحاصروا المعرة واحتلوها بعد قتال عنيف. وأمنوا السكان ثم غدروا بهم، وقتلوا مائة ألف نسمة، على ما يقول ابن الأثير. وفي المعرة طبخوا لحماً بشرياً وأكلوه، كما تقول المصادر الاوروبية، ولا سيما رنسيمان وديورانت.

ثم عاودوا الزحف إلى الجنوب، بعدما رجع بوهمند إلى أنطاكية. وحاصروا حصن عرقة، وهو إلى الغرب من حمص، ولكن الحصن صمد في وجوههم.

وبعد ما احتلوا حصن الأكراد تابعوا سيرهم إلى الجنوب، حتى بلغوا القدس. وكان تنكرد المتفور بالحيوية قد سبقهم إلى بيت لحم فحاصرها واحتلها بسهولة، في حزيران عام ١٠٩٩.

ودام حصار القدس شهراً كاملاً، ولكن الحامية الفاطمية لم تكن تزيد عن ألف جندي، بينما كان عدد الافرنج اكبر من هذا العدد بكثير، وربما بخمسين مرة. وتباطأت النجدة القادمة من مصر.

وصنع الصليبيون أبراجاً ضخمة، وجهزوها بحيث تصير قادرة على إبطال مفعول النار اليونانية التي راح المدافعون يقذفون المهاجمين بجحيمها. وكانت ليلة

الرابع عشر من تموز ليلة رهيبة مرعبة ومضنية للطرفين. وتم الاتفاق بين الغزاة والمغزوّين على أن تخرج الحامية من المدينة بسلام. وبالفعل خرجت القطعة الفاطمية واتجهت غرباً صوب عسقلان. وفي الخامس عشر من تموز دخل الافرنج المدينة المقدسة (١٠٩٩).

وتفجرت الهمجية الاوروبية على أشدها، إذ ارتكبوا مجزرة لا تضارعها مجزرة أخرى طوال الحروب الصليبية كلها. فقد أعملوا السيف في الأهالي العزل، فقتلوا من المسلمين سبعين ألفاً أما اليهود فقد تجمعوا في كنيسهم، ولكن الغزاة أحاطوا بالمكان وأحرقوه على من فيه[٢٣].

وأبطأ الأفضل بن بدر الجمالي، وزير مصر يومذاك، في انجاد القدس، بحيث وصل إلى عسقلان (على ساحل فلسطين الجنوبي) بعد شهر من سقوط المدينة واجتثاث الحياة داخل أسوارها. وخرج الافرنج لملاقاته بأعدادهم الغفيرة. وذات فجر داهموا المعسكر المصري على حين غرة، وأبادوا معظم جيش الأفضل، واستولوا على رايته، وكذلك على سيفه الخاص. وفر وزير مصر هارباً إلى داخل أسوار عسقلان، ثم رحل إلى القاهرة غاضباً ليعد الجيوش لمعركة أخرى.

وبعدما استتب الأمر للافرنج في القدس، اختلفوا مرة ثانية على من سوف يحكم المدينة المنكوبة. واحتدم النزاع بين الصنجيل وغود فري. وأخيراً انتصر دوق الراين، فتوّج ملكاً على بيت المقدس، ولكن بعد طور من النفاق راح يزعم خلاله أنه يخجل من أن يتوج ملكاً بتاج من الذهب حيث توّج المسيح ذات يوم بتاج من الشوك.

وبوصول غود فري إلى عرش بيت المقدس، تأسست الامارة الافرنجية الثالثة في الشرق[٢٤].

ترى، كيف يمكن تفسير هذا الانتصار السريع المدهش الذي أحرزه الصليبيون؟

لا يكفي أن يقال بأن الافرنج متفوقون بكثرتهم، مثلما لا يكفي أن يقال بأنهم شجعان صناديد. وبالمناسبة لقد اعترف العرب الذي عاصروا الحروب الصليبية ببسالة الافرنج. حتى نور الدين، وهو الد أعداء الصليبيين، قد صرح بأن «الافرنج أشجع الخلق». أما أسامة بن منقذ، فقد قال في كتاب «الاعتبار»: «إذا خبر الانسان أمور الافرنج سبّح الله تعالى وقدسه، ورأى بهائم فيها فضيلة الشجاعة والقتال، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل»[٢٥].

غير أن بيت القصيد ليس في شجاعة الافرنج ولا في كثرتهم، بل في تمزق العالم الاسلامي بالدرجة الأولى.

بعد وفاة ملكشاه، سلطان السلاجقة في أصبهان (١٠٩٢)، انخرط ابناؤه في صراع مرير من أجل وراثة عرشه. أما امراء الاقاليم فلم يخضعوا للعاصمة المركزية، حتى ولو خضوعاً اسمياً. ثم ان هؤلاء الأمراء قد راحوا يقتتلون على نحو مدمر. فعندما هاجم الصليبيون مدينة نيقية، كان ملكها قليج أرسلان الأول، يحاصر مدينة سيواس، عاصمة الدانشموند في كبادوكيا. ويوم دخل الافرنج الشام كان رضوان صاحب حلب يحارب أخاه دقاق صاحب دمشق.

أما الشرخ الأكبر في الجسم العربي ـ الاسلامي فهو ذلك الانشطار المرير الذي قسم الأمة، منذ مطلع أمرها، قسمين متناحرين: السنة والشيعة. وكان للسنة دولة مركزها بغداد، وللشيعة دولة مركزها القاهرة، وكل منهما تقارع الأخرى أملاً في القضاء عليها قضاء تاماً. ولقد احتدم الصراع بين الأتراك السنيين وبين الشيعة في كل مكان من أماكن العالم الاسلامي، بما في ذلك مصر الفاطمية.

فحين وصل الافرنج إلى الشام وحاصروا أنطاكية، تنفست مصر الصعداء، إذ قد أتاها من يخلصها من الأتراك، أو هكذا ظن الأفضل، وريث بدر الجمالي في حكم مصر. والحقيقة أن الأفضل، وهو الغارق في الذهب والترف، قد كان رجلاً قصير النظر. فقد أرسل هذا الوزير المغفل سفارة إلى أنطاكية لتفاوض الغزاة على اقتسام الشام (وقد ورد هذا الخبر في المصادر اللاتينية المعاصرة لذاك

الـزمـان). والجـديـر بالتنـويـه أن الافـرنج لم يكونوا قد افتتحوا أنطاكية بعدُ، يومَ وصلتهم سفارة الأفضل. ثم عادت السفارة المصرية إلى القاهرة مصحوبة بسفارة افرنجية[٢٦].

والأرجـح أن الصليبيـين قد خادعـوا الـوزير المصري وأوهموه بأنهم يوافقون على طلبـه، بحيث تنـال مصـر النصف الجنـوبي من بلاد الشـام، بينـما يهيمن الصليبيـون على النصف الشـمالي. والأرجـح أن هذه المخـادعـة قد انطلت على الأفضـل، وانطـلاؤ هـا هو التعليـل السليم لعـدم وجـود قوات مصـرية كثيفة في فلسطـين، ولا سيـما في القـدس، يوم داهمهـا الصليبيـون خلال شهـر حزيـران (١٠٩٩). ومـا كان غرض الافـرنـج من هذه المخـادعة الا ضمان حياد مصر ريثما يتمكن الغـزاة من احتـلال انطـاكيـة، أوربـما من احتـلال الشـام كله أو بعضه. وبالفعل حادت مصر إلى حد غير معقول بحيث تمكن الصليبيون من مباغتتها في فلسطين[٢٧].

والأرجح أن قد تم الاتفـاق بين الأفضـل والافـرنـج على أن يقـوم الجيش المصـري بالأطبـاق على الشـام (التي كانت كلهـا للأتـراك يوم كان الصليبيـون يحاصـرون أنطـاكيـة) من الجنـوب، بينـما يطبق الافـرنج على البلاد من الشمال

وليس هذا الظن بالقـول الجـزاف، بل إن له من الأرضيـة ما يكفي لتـوكيـده. إذ بعدما اطمأن الأفضل إلى صلابة الافرنج، وتأكد من أنهم قوة جبارة، وذلك بعد احتلالهم لأنطاكية، تحرك الجيش المصري باتجاه فلسطين، وقاتل الأتراك وطاردهم حتى جنوب دمشق. وقد حدث ذلك بعد مضي شهرين على هزيمة كربوغا قرب أسوار أنطاكية.

وبكـل توكيـد بوغت الأفضـل بالافـرنـج وهم يتركـون طرابلس، المستقلة يومـذاك، ويـدخلون فلسطـين ليضربوا الحصار على القدس. فما كان منه إلا أن ارتجل جيشاً سيء التدريب والاعداد، وإن كان كبير الحجم أو الكمية، كما تقول المصادر اللاتينية. فهزم الأفضل شر هزيمة. ولكن لا بد للمؤرخ من أن ينصف

ذلك الرجل الذي غدره الافرنج وخدعوه، جرياً على عوائدهم في المخادعة التي دأبوا عليها حتى يوم الناس هذا. فقد أمضى الرجل بقية عمره وهو يجهز الجيوش لاسترداد بيت المقدس، بل لانتزاع فلسطين كلها من أيدي الغزاة، إذ لقد كانت فلسطين طوال التاريخ أرضاً ممتازة للدفاع المبكر عن مصر، وكان تخلي مصر عن فلسطين دوماً علامة انحطاط في مجمل البنية المصرية.

ولئن كان الأفضل قد خدع، والسلطان في اصبهان منهمكاً في مقاتلة أخيه من أجل العرش، فإن المستظهر، خليفة بغداد العباسي، وهو الراضخ لسلطان السلاجقة في أصبهان، قد راح يتلهى بكتابة شعر غزلي خصصه لبعض جواري قصره الناعمات الأبدان. فخليفة المسلمين والعرب في شغل عما يحل بالشام والأناضول من ضروب المصائب والكوارث التي لا عهد لهما بمثلها من قبل، اللهم إلا أن يكون ذلك في زمن الآشوريين.

وبعدما استتب الأمر للأفرنج في القدس أخذوا يحاصرون مدن الساحل الشامي بمساعدة الأساطيل الايطالية التي لولاها لما نجحت الحركة الصليبية على الاطلاق. وسقطت المدن الساحلية في أيديهم الواحدة تلو الأخرى، فقد استقتلوا من أجلها لأنها حاجز كبير يحجز بينهم وبين البحر، الذي هو ينبوع وجودهم واستمرارهم. وفي بادىء الأمر صمدت في وجههم مدينتان ساحليتان: صور التي سوف يحتلونها عام ١١٢٤، وعسقلان، «عروس الشام»، التي سوف يأخذونها عام ١١٥٣، دون أن يتمكن نور الدين من صدهم عنها، لخوفه من غدر حكومة دمشق، المتواطئة مع الافرنج يومذاك.

وقد ارتكب الغزاة عدة مجازر في المدن الساحلية، ولا سيما في قيسارية وعكا وبيروت وطرابلس. فقد برهن الاوروبيون في هذه المدن، كما في انطاكية والمعرة والقدس، على أنهم همج يجهلون معنى الانسان، ولا يقيمون للروح البشري وزناً على الاطلاق.

كانت طرابلس في أواخر القرن الحادي عشر مدينة مستقلة تحكمها اسرة عربية تسمى بني عمار. فهي لم ترضخ للأتراك ولا للفاطميين المتصارعين من أجل الهيمنة على الشام. وبعدما احتل الصليبيون القدس أتاها الصنجيل وضرب عليها الحصار. فالصنجيل يريد إمارة في الشرق، وكان حتى مضي عدة سنوات على بدء الحملة الصليبية ما يزال مشرداً بلا مكان يستقر فيه. ومع ان جيشه قد كان أكبر جيش بين الجيوش الأربعة، فإنه قد «طلع من المولد بلا حمص»، كما يقول المثل الشعبي. ولهذا أصر الصنجيل على أنه لن يترك طرابلس حتى يعتنق اميرها الديانة المسيحية. ويقيناً فإنه لن يترك طرابلس حتى لو اعتنق اميرها الديانة المسيحية.

وطال حصار طرابلس، واستمر عدة سنوات. وتكالب عليها الافرنج، لا لأنها تربطهم بالبحر وكفى، بل لأنها تربط مملكة القدس بإمارة انطاكية أيضاً.

وأخفقت جميع الجهود التي بذلتها دمشق من أجل انقاذها. وسافر أميرها، ابن عمار، إلى بغداد ليستنجد بالخليفة. ولكنه عاد إلى دمشق بخفي حنين. فالخليفة مشغول باللهو والترف وكتابة الشعر الركيك.

وسقطت المدينة عام ١١٠٩، ودخلها الفرنجة وأعملوا السيف برقاب أهلها، وأحرقوا بعض أحيائها، وأتى الحريق على مكتبتها التي كانت واحدة من أعظم مكتبات الدنيا في ذلك الزمان، والتي سبق للمعري أن زارها ودرس فيها كثيراً.

كانت البحرية المصرية قد أخذت بالتدهور خلال القرن الحادي عشر، ولم تكن الدولة العباسية دولة بحرية في أي يوم من الأيام. وأما السلاجقة فشعب بدائي صحراوي، وشعوب الصحراء تمقت البحر ولا تملك أن ترتاده إلا بعد ما ترتقي كثيراً في سلم الحضارة.

وهكذا بقي البحر للافرنج يسرحون فيه ويمرحون. والحقيقة أن معركة بحرية واحدة ذات شأن لم تحدث طوال الحروب الصليبية. وفي منتهى الصواب أن

يقال بأن نشاط الأساطيل الايطالية بوجه خاص قد كان عاملاً مهماً من عوامل انتصار الافرنج في الشام. فقد وصل اسطول جنوي إلى السويدية، يوم كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية. ووصل اسطول جنوي آخر إلى يافا عام ١٠٩٩.

وفي السنة نفسها وصل اسطول قادم من بيزا. أما في السنة التالية، أي سنة ١١٠٠، فقد أرسلت البندقية أسطولاً يتألف من مائتي سفينة. والحقيقة أن اسهام الجنويين في الدعم البحري قد كان اكبر اسهام بين جميع الاسهامات التي قدمتها الأساطيل الاوروبية كلها. فبفضل الجنويين سقطت طرابلس عام ١١٠٩[٢٨].

وفي العام التالي وصل اسطول نرويجي يقوده الملك سيجورد، وقد أسهم هذا الاسطول اسهاماً فعالاً في احتلال الصليبيين لصيدا وبيروت، وهما التابعتان يومذاك لمصر، إذ لقد منع النرويجيون أي امداد فاطمي يصل من البحر إلى داخل المدينتين المحاصرتين براً وبحراً[٢٩].

وفي عام ١١٢٤ وصل إلى سواحل الشام اسطول بندقي يتألف من مائة وعشرين سفينة، وضرب حصاراً بحرياً على مدينة صور، التي راح الافرنج الصليبيون يحاصرونها من جهة البر. فكان أن سقطت صور في ايديهم خلال ذلك العام، لأن الاسطول المصري قد منع من امدادها.

وقد اتفق الجنويون مع مملكة بيت المقدس على أن ينالوا ثلث الغنيمة التي يغنمونها من المدن التي يسهم الجنويون في فتحها. وكان اول اسهام لهم في ارسوف وقيسارية، وهما إلى الجنوب من حيفا، وذلك سنة ١١٠١، فنالوا بالفعل ثلث الغنيمة. أما اسهامهم في أنطاكية فلم يأخذوا من جرائه ثلث الغنيمة، لأن بوهمند قد استفرد بالفريسة كلها. وبالتعاون مع مملكة القدس، استطاع الجنويون أن يفتحوا عكا (١١٠٤)، وأن ينالوا فيها مكان الصدارة.

يقيناً، ان البحرية الايطالية قد كانت سبباً جوهرياً بين جملة الأسباب التي مكنت الافرنج من الانتصار في الشام[٣٠].

بعد فتح الصليبيين لانطاكية تشجع الناس في بعض الأقطار الاوروبية فراحوا يعدون العدة من أجل حملة صليبية جديدة، إذ أن من شأن النجاح أن يحرض في الانسان الرغبة في مزيد من النجاح. وقد ازدادوا حماسة بعدما وصلت الأنباء باحتلال الافرنج لمدينة القدس. وهذا خبر لم يعلم به البابا اوربان الثاني، فقد مات الرجل قبيل افتتاح «جنود الله» «لمدينة الله». وكان أدهمر، ممثل البابا في الحملة، قد مات إثر احتلال الصليبيين لمدينة أنطاكية، بحيث لم يشاهد القدس أبداً.

وفي الثامن عشر من تموز عام ١١٠٠ مات الملك غود فري في القدس. وتوج الافرنج أخاه بلدوين، أمير الرها، ليرث عرشه باسم بلدوين الاول. وقبل أن يغادر مدينته الأولى التي انتزعها من توروس بالخديعة والنذالة، عين ابن عمه بلدوين دي بورغ أميراً عليها، وتابعاً له مثلما كان امير انطاكية، وكذلك امير طرابلس من أتباع ملك القدس.

أما بوهمند الأول، وهو أكفأ قادة الافرنج في ذلك الطور المباغت، فقد أخذ يدعم جيرانه الأرمن ضد الأتراك. فنصب له الأمير غازي الدانشمند، امير كبادوكيا، كميناً ناجحاً، فأسره عام ١١٠٠، وسجنه في قلعة نكسار قرب البحر الأسود.

وفي عام ١١٠١ خرجت الحملة التي أعدتها اوروبا لتساعد ملك القدس في الشام. وقد تألفت من ثلاثة جيوش أتت كل منها على حدتها. أما الأول، وهو الأكبر، فقد كان ايطالياً جاء من أقليم لومبارديا الواقع في الشمال. وعندما وصل هذا الجيش الى بيزنطة استطاع الكسيوس أن يقنع رجاله بأن يتسلم الصنجيل القيادة، لأنه قد صار ذا خبرة بشؤون الاتراك وأساليبهم الحربية. وقد كان الصنجيل في بيزنطة يومذاك، وأصبح صديقاً حميماً للامبراطور.

ولكن الجيش اللومباردي، بدلاً من أن يتجه إلى فلسطين، آثر أن يتجه إلى كبادوكيا بغية فك الامير بوهمند من اساره والعودة به إلى انطاكية. واتجه الجيش شرقاً وعبر نهر الهاليس الذي يصب في البحر الأسود.

ولكن الأتراك وحدوا صفوفهم وقواهم هذه المرة، والتقوا بالجيش اللومباردي في مكان يسمى المرزبان (تموز ١١٠١)، وتمكنوا من إبادة جميع مشاة اللومبارديين أو أسرهم، أما الفرسان فقد لاذ معظمهم بالفرار، ومن بينهم الصنجيل الذي رحل إلى بيزنطة، ثم إلى ظرابلس ليحاصرها، ولكن ليمرض ويموت قبل أن يفتح الافرنج المدينة بأربع سنوات، أي في عام ١١٠٥.

وابتداء من معركة المرزبان هذه أصبحت القوة الآسيوية شديدة التفوق على القوة الاوروبية في كل مكان باستثناء السواحل. وصار معظم المعارك البرية الخالصة يحسم لصالح الآسيويين.

وعند هرقلية، وفي العام نفسه، التقى الأتراك الموحدون، بالجيش الثاني، وهو جيش فرنسي محض، فهزموه هزيمة ساحقة ومنعوه من الوصول إلى الشام.

وبالقرب من المدينة نفسها التقى الأتراك مرة أُخرى بالجيش الثالث، وهو جيش خليط يتألف من الفرنسيين والألمان. وتمكنوا من قتل معظم رجال هذا الجيش، وشردوا البقية الباقية فعادت أدراجها إلى بيزنطة. وكان وليم التاسع، دوق اكيتانيا، يقود الفرنسيين في هذه المعركة. ووليم هذا واحد من أشهر شعراء اوروبا في ذلك الزمان.

وهكذا ثبت أن الأناضول التركي درع ممتاز لسوريا، من شأنه أن يلتهم الشطر الأعظم من غزاتها قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى ربوعها[٣١].

وبعدما خرج بوهمند من السجن عام ١١٠٣، اشترك مع أمير الرها، بلدوين دي بورغ، وكذلك مع جوسلين الأول، أمير تل باشر التابعة لامارة الرها، ومع ابن اخته تنكرد الباسل، اشتركوا في هجوم على مدينة حران ابتغاء ضمها إلى الرها بحيث تصير قاعدة عسكرية تصلح للانقضاض على الموصل، والموصل يومذاك اكبر قلعة للآسيويين في صراعهم ضد الاوروبيين.

وأسفرت معركة حران عن هزيمة منكرة للافرنج، وأثبتت أنهم عاجزون عن التوغل داخل الجزيرة والعراق، بل أثبتت أن وجود الافرنج إلى الشرق من نهر الفرات هو وجود مؤقت وحسب.

لقد أُسر بلدوين أمير الرها، وأُسر كذلك تابعه جوسلين الأول. وأظهر الأتراك من الكفاءة على ادارة المعركة ما يثير الاعجاب حقاً، إذ كان القتال بمثابة سلسلة من الكمائن والاغارات المباغتة الشديدة الاتقان، بحيث لم يجد الجيش الافرنجي، المؤلف من أربعة وعشرين ألف جندي، **أي مناص أو ملاذ من** الاستسلام أو الموت في معظم مراحل القتال، وذلك لأن الأتراك أتقنوا مبدأ التطويق والابادة إثر المباغتة الشديدة الاحكام. وهكذا ثبت أن الشرقيين أحنك وأحكم، وأقدر من الغربيين على ادارة المعركة. وبذلك تمكن جيش الموصل من الثأر للهزيمة التي لحقت به قبل ست سنوات عند أسوار انطاكية[٣٢].

أما في الجنوب فقد دار الصراع مريراً بين المصريين والافرنج. وكانت معركة الرملة عام ١١٠٢ واحدة من أحر المعارك بين الطرفين، وقد هزمت قوات بلدوين الأول، وكاد الملك نفسه أن يلقى حتفه. وقد سبق للمصريين ان ربحوا معركة عسقلان الثانية قبل هذا التاريخ الأخير بسنة واحدة. وربحوا كذلك معركة عسقلان الثالثة عام ١١٠٣، اذ هرب بلدوين مرة أخرى لينجو بروحه، والحقيقة أن الأفضل لم يدخر جهداً ولم يتقاعس طوال الفترة التي عاشها بعد سقوط بيت المقدس، عن محاربة الافرنج في فلسطين بغية انتزاعها من براثنهم. ولكن الحشاشين اغتالوا الأفضل ليلة عيد الفطر عام ٥١٥ هجرية، أي بعد سقوط القدس في أيدي الافرنج بأكثر من عشرين سنة[٣٣].

وإثر هزيمة حران شعر الامبراطور البيزنطي بأن الصليبيين ضعفاء، وبأن في إمكانه أن ينتزع كيليكيا من أيديهم. وبالفعل أرسل جيشه واحتل الاقليم إلى الشمال من انطاكية، كما احتل كذلك مدينة اللاذقية. وهكذا أصبح بوهمند ضعيفاً

إلى حد كبير، فتجرأت حلب على انطاكية واستعادت الكثير من الحصون التي خسرتها لصالح بوهند، بل وصل الجيش الحلبي إلى اسوار المدينة الافرنجية نفسها.

وأُسقط في يد بوهمند، فغادر انطاكية، بعدما نصّب ابن أخته تنكرد، نائباً عنه، ورحل إلى ايطالية ليقود حملة صليبية ضد بيزنطية. ولكن الكسيوس قاتله في البلقان، وانتصر عليه، وأرغمه على توقيع صلح يتعهد بموجبه أن يكون مجرد تابع من أتباع الامبراطور (١١٠٨). ولم يعد بوهمند إلى انطاكية بل ظل في ايطالية حتى مات بعد ثلاثة أعوام من هزيمته في البلقان، ليرثه ابنه بوهمند الثاني الذي كان في السنة الثانية من عمره يوم وفاة أبيه.

أما تنكرد الباسل فلم يعترف بالصلح الذي عقده خاله مع الامبراطور، بل لقد راح ينقض على القوات اليزنطية ويسترجع منها جميع الأراضي التي خسرتها أنطاكية. ثم اشتدت سطوته على مدينة حلب، فأرهقها وأذلها وأرغم ملكها رضوان على أن يصير من أتباعه، وأن يدفع له جزية سنوية ثابتة[٣٤].

وتحت ضغط الجور الذي ألحقه تنكرد بمدينة حلب، فقد خرج وفد من أهل الشام إلى بغداد (١١١٠) ليستنجد بالخليفة والسلطان. وأخذ هذا الوفد يشغب في المساجد والشوارع ويؤلب العامة ضد السلطة المركزية حتى استجابت لطلبه ووعدته خيراً.

وهكذا خرج مودود أمير الموصل، وهو شقيق السلطان، واتجه صوب حلب لينصرها على تنكرد. ولكن رضوان، أمير حلب، أغلق أبواب المدينة في وجه مودود. لقد آثر رضوان هذا أن يكون تابعاً لتنكرد على أن يكون تابعاً للسلطان.

وقد كتب المؤرخ الحلبي كمال الدين بن العديم يقول: «إن المقدمين كانوا يريدون بقاء الافرنج ليثبت عليهم ما هم فيه». وهذا يعني أن القدماء قد استوعبوا ما فحواه أنَّ مصلحة الاقطاعيين تتلاقى مع مصلحة الغزاة.

فما كان من مودود إلا أن زحف جنوباً وتحالف مع ظهير الدين طغتكين، الذي أخذ يدير شؤون دمشق اثر وفاة دقاق. واتفق ظهير الدين مع مودود على غزو مملكة القدس، وذلك بعدما كان حاكم دمشق قد أبرم هدنة مشينة مع الافرنج. ويبدو أن ظهير الدين قد أراد أن يجعل الصليبيين يستوعبون أهمية مدينته بالنسبة إلى مستقبل الصليبيين ومصيرهم في الشرق، وبذلك يدخل معهم كحليف أو شريك، وليس كتابع ذليل.

وعبرت قوات مودود المشتركة نهر الاردن، عند سنّ النبرة إلى الجنوب من بحيرة طبرية. والتقت بالافرنج في الاقحوانة وقاتلتهم وانتصرت عليهم فالتجأت فلولهم إلى سفح جبل يقع إلى الشرق من طبرية واعتصمت فيه واحجمت عن النزال. وجاست الخيل في الجليل، بل بين نابلس وعكا، ونهبت وأسرت وخربت واحرقت، ولم يجرؤ افرنجي واحد على مواجهتها (١١١٣).

وفي أيلول من تلك السنة عاد مودود إلى دمشق بعد هذا النصر المؤزر.

وسرّح جيشه، بعدما اتفق مع الجند على أن يعودوا اليه في الربيع القادم ليعاود شن الغارات على مملكة القدس. ولكن الحشاشين اغتالوا مودود وهو يدخل إلى الجامع الأموي لاداء صلاة الجمعة. وبعدما طعن بخنجر حمله اصدقاؤه إلى بيته، والحوا عليه أن يشرب كأس ماء، وهو صائم يومذاك، فأبى، وأصر على أن يتلاقى مع ربه صائماً غير مفطر.

وقيل انه اغتيل بتدبير من ظهير الدين. وهذا هو الأرجح. فسياسة دمشق ظلت ميالة إلى الاستقلال عن الافرنج والسلطان معاً. وكان دأبها اللعب على التوازن بين القوى المتصارعة[٣٥].

وبعد مقتل مودود تحركت القوات الآسيوية من أعالي الجزيرة اكثر من مرة، وناوشت الافرنج وخاضت ضدهم معارك طفيفة الشأن، دون أن تحرز أي نصر مؤزر يضارع نصر الاقحوانة، إلا عام ١١١٩. فقد توفي تنكرد بعد خاله بسنة

واحـدة، أي في عام ١١١٢. وأصبـح روجـر سالرنو وصياً على امارة انطاكية ريثما يكبر بوهمند الثاني ويأتي ليتسلم امارة أبيه.

استطـاع ايلغـازي امـير ماردين أن يبيـد الجيش الأنطـاكي عن بكرة أبيه، على وجه التقريب، وذلك في تل دانث على الطرف الشرقي لسهل سرمدا. وقد كان الكـونت روجـر من جملة القتلى. وتألف الجيش الأنطـاكي من أربعـة آلاف جندي على ما يقول المؤرخون الغربيون المحدثون، ومنهم رنسيمان، ومن عشرين ألف جندي على ما يقول ابن القلانسي، صاحب «تاريخ دمشق»[٣٦].

واحتشـد الافـرنـج من فلسطـين وطـرابلس وزحفـوا ليثأروا لهذه الكارثة.

والتقـاهم ايلغـازي عنـد قريـة تسمى هاب، إلى الغـرب من حلب. وكان ظهير الـدين قد هبّ لنجـدة ايلغـازي. ودارت المعركة ضارية عنيفة وانتهت بانسحاب جميع الأطراف دون نصر حاسم.

وتـوفي الأمـير المجـاهد ايلغازي، فحمل راية الجهاد من بعده أمير جزري آخـر يسمى بلك. والتقى هذا الأمـير بالكـونت جوسلين الأول الـذي صار أميراً على الرها وأسره. وجاء الملك بلدوين الثاني من القدس لنجدة جوسلين، فالتقاه بلك على الفـرات قرب مدينـة كركـر، وأسـره هو الآخـر في نيسـان عام ١١٢٣. وهكذا وقع بلدوين دي بورغ وجوسلين الأول في أسر الأتراك مرة ثانية (كانت المرة الأولى في حران عام ١١٠٤).

لقـد صار بلدوين دي بورغ ملكـاً على بيت المقـدس، بعـد وفاة ابن عمه بلدوين الأول عام ١١١٨. وقبل أن يغادر إمارة الرها عيّن صديقه جوسلين الأول أميراً بدلاً منه. هذا وقد أعجب المؤرخون الاوروبيون المحدثون ببلدوين الأول، شقيق غودفـري. والحقيقـة أن بلدوين هذا ـ على الـرغم من فروسيتـه وبطولته ـ غير جديـر بالاعجـاب، نظـراً لغـدره بالأرمن وبأمـيرهم توروس، وهم الـذين استقبلوه استقبال المنقذ والمحرر. أما أخوه غودفري فقد وصفه رنسيمان بأنه «حاكم ضعيف أحمق»[٣٧].

وبعـدمـا خرج بلدوين الثـاني من الأسـر هاجم مدينـة حلب التي تشكـل يومـذاك فاصلة كبرى بين الـرهـا وانطـاكية. والأهم من ذلك أن سقوط حلب في أيـدي الافـرنـج سوف يضع دمشق بين فكي الكماشة الصليبية التي سوف تضغط عليها من حلب والقدس في آن واحد، احداهما من جهة الشمال والأخرى من جهة الجنوب.

وتحـرك الجيش السلطـاني من المـوصل بقيادة الأمير البرسقي. وحين سمع بلدوين بالنبأ انسحب من حول حلب والتجأ إلى قلعة الأثارب. ودخل البرسقي مدينة حلب وضمها إلى الموصل. ثم التحم مع بلدوين في معركة ضارية عند بلدة تسمى عزاز، وذلـك في أيـار عام ١١٢٥. ودارت الـدائرة على الآسيويين وهزموا هزيمـة منكـرة، فالتجأت فلولهم إلى حلب. وعاد بلدوين إلى القدس. وانقذت المدينة من براثنه.

وبعـدمـا أخفق بلدوين في الشـمال، انقض على دمشق. والتقى بالجيش الدمشقي في مرج الصفر، إلى الجنوب الغربي من الكسوة، حيث سبق لخالد بن الوليد أن خاض معركة ضد الروم. ودارت معركة حامية الوطيس بين الدمشقيين والافـرنـج. وسحق جيش دمشق وولى هاربـاً إلى داخـل أسـوار المـدينـة. ولكن بلدوين عاد من حيث أتى.

بيد أن ميزان القوى سوف يتغير بعد الآن، وسوف تنتقل دمشق وحلب من طور الدفاع إلى طور الهجوم.

تأسيس الدولة السورية

يتوقف التحرير، بداهة، على دولة وطنية ذات مؤسسات شديدة الصلادة عظيمة الارتقاء. وفي منتهى الحق أن عماد الدين زنكي قد كان أول من أدرك هذا المبدأ الأولاني لأية استجابة ناجحة يبديها بلد من البلدان تجاه التحديات الكبرى التي تهدد وجوده ومحتويات هويته.

وفضلاً عن ذلك فقد عاش زنكي ومات وهو مقتنع بأن الوحدة مبدأ التحرير، وأن الافرنج سوف يظلون في الشارع ماظل الشام ممزقاً إلى فئات لايجمعه جامع سياسي واحد. وليس في امكان أحد أن يعرف ما إذا كان رائد التوحيد والتحرير قد فكر في الوحدة العربية، أو الاسلامية، أو لم يفكر. بيد أن توحيد الشام والجزيرة قد كان شغله الشاغل طوال حياته.

في عام ١١٢٧ اغتال الحشاشون الأمير البرسقي، منقذ حلب، وهو يصلي في جامع الموصل. فتوجه إلى بغداد وفد من أهل الموصل كي يختار أميراً جديداً للمدينة. وبما أن الموصل كانت القاعدة الأساسية للمواجهة والقتال، فقد ألح الوفد على الخليفة والسلطان من أجل تعيين رجل كفؤ مشهود له بقوة الشخصية والقدرة على ادارة الصراع. ولم يجد الوفد أكفأ من عماد الدين زنكي. ولهذا ألح القوم على وجوب تعيينه أميراً للموصل. فهو رجل له ماض عسكري مشهور.

ووافق الخليفة والسلطان كلاهما على هذا المطلب. وتسلم زنكي مقاليد الامارة،

إثر مقتل سلفه البرسقي. وفي الحق أن هذا الحادث قد كان استقلالاً كبيراً في تاريخ الحروب الصليبية كلها.

كان رد الفعل الاسلامي قبل زنكي مجرد غارات آنية أو موسمية، إذ تأتي قوة اسلامية (في الغالب من الجزيرة) لتخوض معركة ما ثم ترحل. أما الآن فقد أصبح التحرير غاية غايات الدولة كلها. وينبغي للدولة أن تهيمن على رقعة من الأرض تكافىء من حيث المساحة تلك الرقعة التي يهيمن عليها الافرنج. ولهذا فانه بعدما دخل حلب (١١٢٨)، بوصفها جزءاً من أملاك سلفه البرسقي، صار شغله الشاغل أن يضم دمشق وأحوازها (حماة، حمص، بعلبك، بصرى) إلى حلب والجزيرة. ولكن دمشق استعصت عليه كما لا يستعصي شيء.

أما خطته الحربية فاقتضت أن ينتزع من الافرنج كافة مواقعهم المنتشرة إلى الشرق من الفرات والعاصي. وبالفعل استطاع زنكي، الذي قضى معظم أيامه على صهوات الخيل، أن يضم الكثير من أجزاء نهر العاصي إلى مملكته الأخذة بالنمو. فقد نازل ريموند الأول أمير طرابلس وانتزع من يديه حصن بعرين إلى الغرب من حمص. وعبثاً حاول فولك، ملك بيت المقدس (منذ وفاة بلدوين الثاني ١١٣١) أن ينقذ الحصن. فقد تمكن زنكي أن يأسر ريموند وأن يحاصر فولك. في داخل الحصن. وانتهت المعركة بتسليم الحصن لعماد الدين (١١٣٧).

وحين هجم الامبراطور[٣٨] يوحنا كومنين (وهو ابن الكسيوس الذي توفي عام ١١١٨) على سوريا الشمالية، مصحوباً بأمير أنطاكية وامير الرها (ريموند دي بواتييه وجوسلين الثاني)، فقد تريث زنكي كثيراً قبل الاشتباك معه في معركة فاصلة. وأرسل الرسل إلى بغداد يستصرخ الخليفة والسلطان. وتحركت القوات السلطانية من أعالي الجزيرة كي تشتبك مع قوات الامبراطور. وعلم يوحنا بالأمر فصالح أمير شيزر التي كان يحاصرها، وانسحب شمالاً قبل أن تتمكن القوة السلطانية من عبور نهر الفرات. وعند ذاك انقض عماد الدين على مؤخرة الجيش البيزنطي وأعمل فيها السيف (١١٣٨).

سارت دمشق طوال النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي على منهج متقلب. فهي تحارب الافرنج طوراً، وتحالفهم طوراً آخر، وذلك رغبة منها في صيانة استقلالها. فبعد وفاة ظهير الدين، آل الحكم في دمشق إلى تاج الملوك بوري، الذي قاتل الافرنج طوال مدة حكمه (١١٢٧ - ١١٣١)، وانتصر عليهم في معركة هامة هي معركة براق (١١٢٩). وبعدما اغتاله الحشاشون خلفه ابنه شمس الملك اسماعيل. وكان هذا فتى باسلاً أعجب به زنكي إلى حد بعيد. فقد روّع الافرنج بالغارت في داخل مملكة القدس، ولا سيما حول طبرية والناصرة وعكا. واسترد منهم مدينة بانياس، عند منابع نهر الاردن. كما استرد من زنكي نفسه مدينة حماة التي سبق لزنكي أن انتزعها من أبيه بالحيلة والخديعة.

وفي عهد شمس الملوك انقضت جموع من التركمان على مدينة طرابلس، والتقت بجيشها واشتبكت معه في معركة مريرة وانتصرت عليه النصر المؤزر. وقتلت من جنود طرابلس مقتلة عظيمة، وكان بونز، أميرها، بين القتلى. وغنم التركمان غنائم وفيرة. ويبدو أن هذا الهجوم قد تم بتدبير من شمس الملوك، الذي تسلم الحكم وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

وأرسل شمس الملوك رسالة إلى زنكي ليأتي ويتسلم دمشق، بعدما تأكد من ان الافرنج يبيتون أمراً خطيراً ضد هذه المدينة. وبينما كان زنكي في الطريق إلى دمشق، قامت صفوة الملك والدة اسماعيل بمؤامرة اودت بحياة ابنها صيانة لاستقلال دمشق. فما كان من زنكي إلا أن قفل راجعاً إلى حلب.

وفكر عماد الدين أن يخطب صفوة الملك هذه، عله يهيمن على دمشق بعد الزواج. ورضيت المرأة بعماد الدين زوجاً لها، شريطة أن يكون مهرها مدينة حمص وحدها. وقبل عماد الدين بذلك، وزفت اليه الأميرة عام ١١٣٨.

وعين زنكي رجلاً على حمص يدعى معين الدين أنر. وكان هذا من أمكر خلق الله. فتوجه إلى دمشق وهيمن على الأمور فيها، وأخذ يعمل على استقلالها التام. ورأى أن القوة الوحيدة التي تهدد مملكة دمشق هي قوة زنكي، فما كان منه

إلا أن أرسل اسامة بن منقذ سفيراً إلى القدس ليطلب التحالف مع الافرنج ضد عماد الدين. وتعهد بأن يدفع للصليبيين عشرين ألف قطعة ذهبية كل شهر.

وبالطبع، لا قبل لزنكي بمواجهة قوات هذا الحلف. فما كان منه إلا أن قرر توجيه جهده صوب العمل في الشمال[٣٩].

وهكذا، توّج زنكي مناشطة الحربية باحتلال مدينة الرها (١١٤٤). وقد أثبت الرجل أنه سياسي بارع، وذلك حين استطاع أن يفك تحالف السكان الأصليين، من أرمن وسريان، مع الافرنج. فقد عامل الأغراب، أعني الصليبيين، بوصفهم غزاة لا بد من اجتثاث وجودهم في الرها، أما المسيحيون الأصليون فاستمالهم إليه وعاملهم بوصفهم مواطنين أحراراً في دولة متحضرة تحترم حقوق رعاياها دون تمييز ديني.

ولقد عمل زنكي على حماية اليهود من الافرنج. فنقل إلى الرها ثلاثمائة أسرة يهودية، وذلك بغية تنشيط الاقتصاد في مملكته الناشئة. وربما كان له هدف آخر من ذلك الاجراء، وهو إحداث خلخلة في البنية السكانية لمدينة الرها، بحيث لا يظل المسيحون يشكلون أغلبية السكان.

واغتيل زنكي وهو يحاصر قلعة جعبر، على الفرات (١١٤٦)، مات ميتة وجودية، عبثية، مجانية. قتلهُ أحد مماليكه وهو نائم، وذلك لسبب شديدالتفاهة. والطريف أن المملوك قد هرب إلى القلعة المعادية. ووقف ليلاً تحت السور، وقال للحراس: ارفعوني فقد قتلت السلطان. فردوا عليه بقولهم: «والله لقد قتلت المسلمين أجمعين». وهذا قول من شأنه أن يدلل على أن زنكي قد كان يتمتع بشعبية كبيرة حتى بين أعدائه من المسلمين.

ومع ان أحداً من المؤرخين لم يتحدث عن أية مؤامرة لاغتيال زنكي، فان العقل الريبي لا بد له من التدخل عند هذه الحادثة. ان الملك الذي احتل الرها وأنهى الوجود الافرنجي إلى الشرق من الفرات انهاءاً تاماً (إذ احتل سروج بعد الرها، وكذلك جميع المواقع الصليبية في الجزيرة) لا بد من أن ينظر اليه الملوك

المسلمون بوصفه مصدر الخطر الأول على وجودهم ووجود اماراتهم الهزيلة المتداعية. فمن المحتمل حقاً أن لا يكون عماد الدين قد مات ميتة مجانية لا تنبجس من السياق الحي للأحداث. وربما دفع الرجل حياته ثمناً لانتصاراته الباهرة.

أجمع المؤرخون العرب على أن زنكي قد كان رجلاً دؤوباً لا يعرف الكلل أو الملل، مثلما اتفقوا على درايته بالاوقات المناسبة لهذا العمل أو ذاك. ووصفه ابن القلانسي بأنه كتوم لا يطلع أحداً على أسراره. واعجب به ابن الأثير أيما اعجاب، وقال عنه انه كان شديد الحزم محتاطاً لكل أمر، بحيث لا يمكن أن يباغته حادث مداهم، أو أن يتورط في أمر لا خلاص له منه[٤٠].

وورثه ولداه، سيف الدين غازي ونور الدين محمود. أخذ غازي الموصل، وأخذ نور الدين حلب.

وأول عمل قام به نور الدين هو تثبيت هيمنة الدولة على الرها، إذ لقد حاول الافرنج استردادها اثر مقتل زنكي. فدحرهم القائد الجديد الشاب، الذي لم يكن قد تجاوز الثلاثين من سنوات عمره، ودخل المدينة ليعيد ترتيب امورها.

ولكن اوروبا هاجت وماجت من أجل الرها. فخرجت الحملة الصليبية الثانية من فرنسا بقيادة الملك لويس السابع، ومن المانية بقيادة الامبراطور كونراد الثالث. وعبر الجيشان الصليبيان البوسفور، كل بمفرده. واشتبك الألمان مع جيش قونية (التي اتخذها الأتراك في الأناضول عاصمة لهم بعد نيقية)، وأبيد أربعة أخماس الجيش الألماني.

أما الفرنسيون فقد داهمهم الأتراك ليلاً وأوقعوا فيهم الخسائر الفادحة. ثم فتك بهم الجوع والمرض والبرد والتعب. ووصلت الحملة إلى عكا منهكة مرهقة.

كانت امارة دمشق، بزعامة معين الدين أنر، الثعلب الماكر، قد تحالفت مع مملكة القدس ضد عماد الدين وابنه نور الدين. ومع أن الأخير قد تزوج ابنة معين

الدين، فان هذا الزواج لم يفك تحالف دمشق مع القدس. ومن المؤسف حقاً أن يعمل اسامة بن منقذ، الشاعر والكاتب والفارس الباسل، سفيراً لمعين الدين عند الافرنج[٤١]. يقيناً، ما كان الصليبيون إلا قوماً ساذجين. فبدلاً من مهاجمة حلب، مدينة نور الدين، العدو الأول للأفرنج، ومصدر التهديد الوحيد لوجودهم في الشام، فقد أجمعوا على مهاجمة دمشق، حليفتهم الوحيدة في المنطقة، وبذلك يكونون قد دفعوها دفعاً إلى أحضان نور الدين.

تحرك الصليبيون عبر نهر الاردن، وداهموا مدينة دمشق في تموز عام ١١٤٨. وابتدأ القتال يوم السبت، السادس من ربيع الأول سنة ٥٤٣ هجرية. واستطاع الافرنج أن يدحروا الدمشقيين في اليوم الأول للقتال، وأن يسيطروا على نهر بردى عند الربوة. وخاف الناس واجتمعوا في الأموي، و«نشروا مصحف عثمان، وحثوا الرماد على رؤوسهم»، كما جاء في الجزء الثاني من مرآة الزمان، لابن الجوزي.

ووصلت نجدة كبيرة من بعلبك، ودخلت المدينة ليلاً من الجهة الشمالية. ولهذا فقد فتح الناس ابواب دمشق صباح الأحد وخرجوا للاقاة الافرنج بعزيمة ماضية، و«كان يوماً لم ير في الجاهلية والاسلام مثله»، على حد قول سبط ابن الجوزي. «فانهزم الافرنج، وقتلوا منهم عشرة آلاف».

ودار القتال عنيفاً بين بساتين الغوطة، وفي الربوة، من أجل السيطرة على الماء. واستبسل معين الدين في الدفاع عن مدينته. وارتجل السكان جيشاً شعبياً خاض حرب العصابات ضد الافرنج في الغوطة، فهي أرض صالحة لمثل هذه الحرب.

والحقيقة أن الحملة الثانية قد هزمت عند أسوار دمشق، على الرغم من أن وليم الصوري، وهو المؤرخ اللاتيني المعاصر للحادث، قد حاول أن يوهم الناس بأن الرشوة التي دفعها معين الدين لبعض قادة الهجوم قد كانت السبب الفعلي في انسحاب الافرنج عن دمشق. ترى، متى كانت الرشوات تصد الغزاة عن المدن المغزوة؟

إن هذه الرشوة التي يذكرها الصوري لم يذكرها أحد من المؤرخين العرب. ثم ان القادة الذين قبلوا الرشوة من معين الدين، إن كان ثمة رشوة حقاً، ما كان لهؤلاء القادة ان يتسلموها إلا لأنهم يئسوا من احتلال المدينة. ففي الحق أن الافرنج لم ينتصروا إلا يوم السبت. وابتداء من صباح الأحد وحتى مساء الأربعاء، أي طوال أربعة أيام، والافرنج يتكبدون الخسائر الفادحة. فارغموا إرغاماً على الجلاء عن المدينة والارتداد غرباً عبر نهر الاردن.

والسبب الأول لهزيمة الافرنج، التي لا يريد المؤرخون الاوروبيون الغربيون أن يعترفوا بها، هو استبسال المدينة التي قاتلت قتال اليائس المدافع عن آخر معاقله. أما السبب الثاني لهزيمة الافرنج في غوطة دمشق، فهو أن الحملة الثانية قد أبيد أكثر من نصفها في الأناضول، بحيث يمكن القول بأن الشطر الذي وصل إلى عكا ليس حملة على الاطلاق، بل شراذم مهلهلة منهكة. فيقيناً لقد بالغ ابن القلانسي في «تاريخ دمشق»، حين قدر عدد الافرنج في الغوطة بخمسين ألفاً، وذلك في أخبار السنة الثالثة والاربعين بعد الخمسمائة للهجرة. ولا بد من انقاص هذا العدد حتى النصف، إذا أردنا الحقيقة أو مايدانيها[٢].

ولم يقف نور الدين مكتوف الأيدي أثناء حصار دمشق، بل استنجد بأخيه سيف الدين وزحفا معاً وخيما على بحيرة حمص، بانتظار الدخول في المعركة عند الوقت المناسب. ولكن معين الدين لم يستنجد بالجيوش القادمة من الشمال، إذ كان يرهبها اكثر مما يرهب الافرنج.

ورحلت قوات الحملة الثانية من عكا إلى اوروبا، فخلا الجو لنور الدين في الشام كله. وقد ادرك الرجل أن اوروبا لا يسعها أن ترسل حملة جديدة خلال بضع سنوات على الأقل. فما كان منه إلا أن تحرك صوب أنطاكية ليفترس جيشها الموهون.

ولا بأس في القاء نظرة على انطاكية قبل التطرق لمصائر امرائها على أيدي رجال القوة السورية الآخذة بالاستفحال يوماً عن يوم.

في عام ١١٢٦ وصل الأمير بوهمند الثاني إلى انطاكية ليرث إمارة أبيه. فرحب به بلدوين الثاني، ملك القدس، وزوّجه من ابنته أليس، التي لم تنجب له سوى طفلة سميت كونستانس، واشتدت وطأة بوهمند على العرب في شمال الشام، فنصب له بعض الأتراك كميناً فأسروه وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى الخليفة في بغداد (١١٣١)، ولم يكن يومها قد تجاوز الثانية والعشرين من سني عمره القصير.

فورثته ابنته الوحيدة التي كان لابد لها من عريس يدير شؤون الامارة.

وأخيرا جيء لها بزوج من فرنسا اسمه ريموند دي بواتييه، وهو ابن وليم التاسع، دوق اكيتانيا الذي اشترك في حملة عام ١١٠١، وهزم عند هرقلية على أيدي جنود قونية.

وعاش ريموند مرعوباً من زنكي ومن ابنه نور الدين المدعوم بجيش الموصل الممتاز. ففي زمن زنكي استطاع قائد من قواد جيشه، واسمه سوار أن يروع إمارة أنطاكية وأن يهزم جيشها مراراً وأن ينتزع منه الكثير من المواقع الحربية الهامة، وأن يأسر ويقتل ويغنم الشيء الكثير، دون أن يتمكن ريموند من أن يقدم أية استجابة ناجحة لتحديات سوّار.

وحين وصل الملك الفرنسي، لويس السابع، إلى انطاكية، ومعه زوجته الملكة اليانور، وهي ابنة شقيق ريموند، وحفيدة وليم التاسع الاكيتاني، فقد رجاه الكونت وحثه على أن يظل في أنطاكية وأن ينصره على نور الدين. ووقفت الملكة في صف عمها وضغطت على زوجها ليقبل طلبه، ولكنها لم تستطع أن تقنع الملك الذي أصر على أداء فريضة الحج في القدس، وتشبثت الملكة بعمها ولازمته ملازمة مشبوهة، فأطلق الناس السنتهم وراحوا يتهمونها في عرضها. وشجعهم على ذلك أن الملكة قد كانت مشهورة بمغامراتها الغرامية. فاضطر الملك إلى أن يختطف زوجته من القصر، على الرغم من أنفها، وأن يهرب بها من أنطاكية إلى القدس[٤٣].

وعندما رجعت القوات إلى اوروبا، لم يعد لريموند من يحميه من نور الدين. والتقى الجيشان الحلبي والأنطاكي قرب حصن يسمى انب Inab، ودارت الدائرة على الافرنج، فأبيد جيشهم كله على وجه التقريب. وقتل ريموند نفسه، قتله أسد الدين شيركوه بيده، وذلك عام ١١٤٩.

وهكذا شغر عرش أنطاكية مرة ثانية. ولكن الأميرة كونستانس، أرملة ريموند الشابة، قد أتاها عريس جديد اسمه رينودي شاتيون (سماه العرب أرناط)، وهو مغامر فرنسي جاء مع الحملة الصليبية الثانية، وظل في الشرق بحثاً عن شيء يسد به نهمه إلى المال والسلطة.

أما نور الدين فقد التفت إلى دمشق، وأصبحت غايته الأولى ضمها إلى مملكته، لينفذ منها إلى مصر. وبالفعل استطاعت قوات نور الدين أن تدخل دمشق عام ١١٥٤. وبذلك اكتمل تشكيل الدولة السورية، الذي أسسه الرائد القدير عماد الدين زنكي.

فلئن كان عماد الدين قد أنهى طور المباغتة الصليبية للشرق المفكك، فإن ابنه نور الدين قد أنجز أول خطوة عملية على درب التوحيد.

يقول ر. س. سميل في كتابه «الحروب الصليبية»: «لفت ستيفنيسون الانتباه إلى انجاز زنكي المتواضع نسبياً، وعهد نور الدين الذي تميز بانعدام النشاط المضاد للافرنج. ونسب هذا في بعض الأحيان، من ناحية الابن إلى جبنه وانعدام روح المبادرة لديه، وخوفه من التدخل البيزنطي لصالح الدول اللاتينية»[٤٤].

للعقل، إزاء مثل هذا الهراء، أن يتساءل: هل كان في ميسور إمارة صغيرة، مثل إمارة حلب، أن تفعل أكثر مما فعلت؟

أما انجازات عماد الدين، الذي احتل الرها وانهى الوجود الافرنجي إلى الشرق من الفرات والعاصي انهاء تاماً، فلا يمكن أن يقال فيها بأنها «متواضعة»، كما زعم ستيفنسون وشريكه سميل. ولو كان الأمر كذلك لما خرجت الحملة

الصليبية الثانية من اوروبا في ظرف لم تعد فيه تلك القارة شديدة التحمس للحرب في الشرق.

أما نور الدين فقد كان نشاطه ضد الافرنج عارماً حقاً. فقد استطاع أن يفتك بالصليبيين في الرها اثر مقتل ابيه، وأن يبيد الجيش الانطاكي وأن يقتل الكونت نفسه، كما استطاع أن يأسر جوسلين الثاني (١١٥٠)، وأن يزج به في السجن، ليستولي على عاصمته تل باشر، في العام التالي، وبذلك يكون قد أنهى إمارة الرها إلى الأبد. وبعد ثلاث سنوات دخل دمشق، حليفة القدس، دون أن يتحرك افرنجي واحد. والتقى نور الدين بالملك بلدوين الثالث ـ وهو أنبل ملوك الصليبيين وأكثرهم تحضراً ـ وهزمه إلى الشمال من بحيرة طبرية، سنة ١١٥٧.

وفي سنة ١١٦٠ استطاع الملك السوري أن يأسر رينودي شاتيون (أرناط)، أمير انطاكية وأن يزج به في السجن طوال ستة عشر عاماً.

وعندما تمكن الافرنج من مباغتة نور الدين قرب حصن الأكراد والحاق الهزيمة به (١١٦٣) أقسم أن يثأر لنفسه في أقرب فرصة ممكنة. وبالفعل التقى بالافرنج عند حصن أرتاح قرب حارم (١١٦٤)، وهزمهم هزيمة منكرة، وأسر جميع الأمراء الذين تحالفوا ضده في العام السابق. أسر بوهمند الثالث، أمير انطاكية، وأسر ريموند الثاني أمير طرابلس، وكذلك هيولوزنيان، الذي سبق له أن جاء من اوروبا على رأس فرقة كبيرة من الفرسان خصيصاً لكي يحارب نور الدين. وأسر كذلك قسطنطين كولومان، الحاكم البيزنطي على كيليكيا. وقد ربط هؤلاء جميعاً بحبل واحد وجرهم إلى حلب. هذا فضلاً عن إبادة معظم الجيوش الصليبية والبيزنطية المتحالفة عند حارم. والحقيقة أن هذه المعركة قد جعلت من إمارة انطاكية مجرد اسم بلا مسمى.

بعد هذه الأحداث، أليس تزويراً للتاريخ أن يقدم ستيفنسون وشريكه سميل على اتهام نور الدين بالجبن؟

ولقد تفوق نور الدين على أبيه في كثير من الميادين الأخرى.

ففي مجال التجارة حرر البضائع من المكوس والضرائب لتنتعش البلاد وتزدهر، فدعمه التجار السوريون، بحيث صارت الحرب، في جانب من جوانبها وحسب، صراعاً بين التجار الآسيويين والتجار الاوربيين، من أجل الهيمنة على أسواق السواحل الشامية التي كانت مراكز لتبادل السلع الآسيوية والأوروبية.

وعمل الملك السوري على حماية الفلاح من الاقطاع والاقطاعيين، كما صان مزروعاته من عبث الجنود وتخريباتهم، وأدرك أن الظلم وانتهاك الحقوق المدنية للمواطن عامل من أهم عوامل التفسخ الاجتماعي. والمجتمعات المتفسخة لايمكن لها أن تنتصر. وأنشأ نور الدين دار العدل التي يترأسها بنفسه، لكي يتأكد من أن أحداً من الرعية لم يظلم. واستطاع أن يشكم كبار الضباط الذين استغلوا مناصبهم وأثروا بغير وجه مشروع. وكان أسد الدين شيركوه وحزبه من أعتى القوى التي لجمها نور الدين وأرضخها لسلطة القانون.

أما على مستوى الثقافة والعمارة والطب، فقد أنجز نور الدين باهر الانجازات، إذ اتسعت المدن في عصره اتساعاً مدهشاً، وبنيت المستشفيات والمدارس والحصون، وقد كان مهموماً بالحصون أكثر من سواها. كما ازدهرت الكتابة، ولا سيما كتابة التاريخ، على نحو لم تألفه بلاد الشام منذ زمن طويل. ففي زمن نور الدين وضع ابن عساكر تاريخ دمشق، ولعله أن يكون أضخم كتاب في التاريخ وضعته البشرية(*).

أما «انعدام روح المبادرة لديه»، فهذه فرية تدحضها الوقائع إن تسابقه مع الافرنج على حيازة مصر وامتلاكها لهو أعظم دليل وأسطع برهان على تميز نور الدين بالقدرة على المبادرة شديدة الندرة.

ففي أواسط القرن الثاني عشر تفسخت أجهزة السلطة في مصر وتدهورت على نحو نادر في التاريخ. واستغل الملك بلدوين الثالث هذا الوضع المتهتك وفرض جزية على مصر تدفعها للافرنج كل سنة مقابل سكوت مملكة القدس على مخازي رجال السلطة المصرية وتركهم يسرحون ويمرحون على هواهم.

ففي سنة ١١٦٣ ثار والي الصعيد، ضرغام بن ثعلبة، على وزير مصر، شاور السعدي، وهزمه وطرده من البلاد، فما كان من شاور الا أن اتجه الى دمشق ليستنجد بنور الدين على ضرغام. وتعهد الوزير المصري المطرود بأن يدفع للملك السوري تكاليف نفقات الحملة بعد أن يتسلم الوزارة من جديد. وتردد نور الدين قليلاً، ولكنه وجد الفرصة المناسبة لربط مصر بحلف مع سوريا ضد الافرنج.

وهكذا خرجت الحملة السورية من دمشق يتزعمها أسد الدين شيركوه، الذي اصطحب معه ابن أخيه اليافع صلاح الدين بن أيوب، وذلك في أيار من عام ١١٦٤. ودخل الجيش السوري الى مصر وحارب ضرغام وهزمه، وأعاد شاور الى السلطة من جديد.

وأهم مافي الأمر أن شيركوه قد أدرك انحلال السلطة المصرية، وعرف ان هذه السلطة مستمرة «لانعدام الغازي والمطالب»، على حد عبارة ابن خلدون الذي يعتقد بأن الكيان التاريخي المتفسخ لايستمر في الوجود إلا لأنه لايلاقي من يسدد إليه رصاصة الرحمة. واعتقد شيركوه أن في ميسوره أن يخلص مصر من شيخوختها وأن يعيدها إلى الشباب من جديد، بفضل مايجلبه اليها من دماء طازجة لم يفسدها الترف بعد. والجدير بالاشارة أن كثيراً من المصادر التراثية نوهت بأن شيركوه قد فهم أمر مصر وفقاً لهذا المبدأ السياسي الذي استوعبه ابن خلدون بعد الجنرال السوري بمائتي سنة.

رفض شيركوه، مروّع الافرنج، أن يخرج من مصر. فما كان من شاور إلا أن استنجد عليه بالملك اموري، ملك القدس. وعند ذاك انسحب الجيش السوري من القاهرة الى بلبيس وتحصّن فيها. وضرب الجيشان المصري والافرنجي الحصار على بلبيس لثلاثة أشهر. وبادر نور الدين الى مهاجمة فلسطين ليضغط على أموري بالعودة الى القدس للدفاع عن مملكته. وهكذا اضطر الملك الصليبي على ابرام اتفاق مع أسد الدين يقضي بانسحاب الطرفين من مصر.

وهذا يعني ضمان استقلال وادي النيل وتحييده، أو اخراجه من حومة الصرع.

ويبدو أن شاور قد كان داهية سياسة، وان لم يكن وطنياً مخلصاً. فحدس حدساً صادقاً فحواه أن الجيش السوري سوف يعود إلى مصر ابتغاء زجها في المعركة ضد الافرنج. فاحتاط للأمر، وطلب من اموري أن يرسل قواته إلى وادي النيل من جديد. فأسقط في يد نور الدين، لأن حلفاً يتألف من مصر والافرنج معناه اندثار الدولة السورية الناشئة.

وهكذا خرجت حملة أخرى من دمشق برئاسة أسد الدين الذي اصطحب معه ابن أخيه، صلاح الدين، مرة ثانية (كانون الثاني، ١١٦٧).

ووصل الجيش السوري إلى مصر، وخيم في الجيزة. ولكن شاور أغدق الذهب على الافرنج الذين هبوا لمساعدته. فالحقيقة أنهم ادركوا مافحواه أن هيمنة السوريين على مصر، او تحالفهم معها، لن يؤدي الا الى انهيار الصليبيين في فلسطين، أو ربما الى تلاشيهم حتى آخر الدهر.

وتحرّج وضع الجيش السوري الذي لاقبل له بمعركة يخوضها ضد الجيشين المتحالفين. وما من مكان في الجوار يتحصن فيه ويدافع عن نفسه. وأثبت شيركوه أنه جنرال محنك خبير بشؤون الحرب والسياسة معاً. إذ ماكان منه إلا أن انسحب صوب الجنوب بعكس مسار النهر. وبذلك ينجز غرضين: أولهما انهاك الجنود المتحالفين.، وبعث السأم في نفوسهم، قبل أن يخوض معركته الفاصلة ضدهم؛ وثانيهما الاستعانة بالشعب المصري الذي كانت جماهيره العريضة شديدة التعاطف مع السوريين. وبالفعل أخذ شباب الصعيد يتطوع في قوات أسد الدين بأعداد كبيرة، وأخذت المساعدات المادية، ولا سيما الطعام، تنهال على الجيش السوري حيثما وجد.

وعند بلدة تسمى البابين توقف أسد الدين، وخاض معركة فاصلة ضد الحليفين بعد ما تأكد من أن العدو قد سئم المطاردة، ومن أن جيشه قد أصبح أقوى من ذي قبل. وأوصى أسد الدين قواد قلب الجيش بأن ينسحبوا لدى أول

وهذا يعني ضمان استقلال وادي النيل وتحييده، أو اخراجه من حومة الصرع.

ويبدو أن شاور قد كان داهية سياسة، وان لم يكن وطنياً مخلصاً. فحدس حدساً صادقاً فحواه أن الجيش السوري سوف يعود إلى مصر ابتغاء زجها في المعركة ضد الافرنج. فاحتاط للأمر، وطلب من اموري أن يرسل قواته إلى وادي النيل من جديد. فأسقط في يد نور الدين، لأن حلفاً يتألف من مصر والافرنج معناه اندثار الدولة السورية الناشئة.

وهكذا خرجت حملة أخرى من دمشق برئاسة أسد الدين الذي اصطحب معه ابن أخيه، صلاح الدين، مرة ثانية (كانون الثاني، ١١٦٧).

ووصل الجيش السوري إلى مصر، وخيم في الجيزة. ولكن شاور أغدق الذهب على الافرنج الذين هبوا لمساعدته. فالحقيقة أنهم ادركوا مافحواه أن هيمنة السوريين على مصر، او تحالفهم معها، لن يؤدي الا الى انهيار الصليبيين في فلسطين، أو ربما الى تلاشيهم حتى آخر الدهر.

وتحرّج وضع الجيش السوري الذي لاقبل له بمعركة يخوضها ضد الجيشين المتحالفين. وما من مكان في الجوار يتحصن فيه ويدافع عن نفسه. وأثبت شيركوه أنه جنرال محنك خبير بشؤون الحرب والسياسة معاً. إذ ماكان منه إلا أن انسحب صوب الجنوب بعكس مسار النهر. وبذلك ينجز غرضين: أولهما انهاك الجنود المتحالفين.، وبعث السأم في نفوسهم، قبل أن يخوض معركته الفاصلة ضدهم؛ وثانيهما الاستعانة بالشعب المصري الذي كانت جماهيره العريضة شديدة التعاطف مع السوريين. وبالفعل أخذ شباب الصعيد يتطوع في قوات أسد الدين بأعداد كبيرة، وأخذت المساعدات المادية، ولا سيما الطعام، تنهال على الجيش السوري حيثما وجد.

وعند بلدة تسمى البابين توقف أسد الدين، وخاض معركة فاصلة ضد الحليفين بعد ما تأكد من أن العدو قد سئم المطاردة، ومن أن جيشه قد أصبح أقوى من ذي قبل. وأوصى أسد الدين قواد قلب الجيش بأن ينسحبوا لدى أول

هجوم يشنه الافرنج عليهم. وبدأت المعركة باغارة سلاح الفرسان الصليبي على قلب الجيش السوري. فانسحب القلب وتبعه الفرسان ، مما أحدث ثغرة فراغية تفصل بين مشاة الافرنج وفرسانهم. وههنا اتيحت الفرصة لميمنة الجيش السوري، التي يقودها الجنرال الفولاذي نفسه، أقصد أسد الدين (بينما كان صلاح الدين يقود القلب)، أن تنقض على مشاة الافرنج وأن تعمل السيف في رقابهم، بينما كان فرسانهم منشغلين بقلب الجيش السوري المتراجع أمامهم عن سابق عمد وتصميم، وبناء على أوامر الجنرال التي أصدرها قبل المعركة. وبذلك اتيحت الفرصة للميمنة السورية أن تفتك فتكاً ذريعاً بمشاة الافرنج. وحين رجع الفرسان الذين لم يحققوا أي نفع من مطاردة قلب الجيش السوري، فقد كر عليهم هذا القلب من جهته، وتلقاهم أسد الدين، بعد مذبحة المشاة، من الجهة الأخرى، فما كان إلا أن ولوا الأدبار لايلوون على شيء. وحين شاهد الجيش المصري الافرنج يفرون، فقد فر هو الآخر دون أن يخوض سوى اشتباكات طفيفة مع ميسرة الجيش السوري. ومن المؤكد أن الجنود المصريين لم يكونوا متحمسين لمقاتلة السوريين، ولهذا فإن خسائرهم كانت جد طفيفة بالفعل.

ثم زحف الجيش السوري إلى الاسكندرية، وفتحت المدينة له أبوابها واستقبلته استقبال المحرر. فما كان من الجيشين المتحالفين إلا أن ضربا الحصار على المدينة. ودام الحصار أربعة أشهر. ثم تفاوض أموري وأسد الدين على أن يخرج الطرفان من مصر. ونفذ الاتفاق في شهر آب، عام ١١٦٧.

غير أن اموري أدرك خطورة مصر، واستوعب مافحواه أن مستقبلها مصيري بالنسبة إلى الوجود الافرنجي في الشام. فقرر أن يحتلها بأي ثمن. والأرجح أن الخندق العربي قد أدرك الشيء نفسه. ولهذا، فقد ورد في الأخبار أن أسد الدين توجه الى بغداد واجتمع بالخليفة وتباحث معه حول مصير مصر. وجاء كذلك ان الخليفة قال لأسد الدين: إن فتحتها فهي لك.

وعلى أية حال، فقد وصل أموري إلى بلبيس في الثلاثين من تشرين الثاني

عام ١١٦٨، وحاصرها وفتحها، وقتل وأسر جميع سكانها العزل، دون أن يستثني الأقباط المسيحيين. وفي الوقت نفسه كانت قطعة افرنجية قد جاءت الى مصر بحراً واستولت على مدينة تنيس في الأطراف الشمالية من الدلتا، وأخذت تذبح السكان دون رحمة، وأبادت المسيحيين قبل المسلمين.

وازاء هذه الكوارث، أرسل العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين، رسالة إلى السلطان السوري يطلب منه النجدة والمساعدة. ووضع في الرسالة بعضاً من شعر نسائه، تحريضاً لنور الدين على الاستجابة الفورية، ولبى الملك السوري الطلب، فخرج أسد الدين من دمشق في حملة ثالثة على مصر، خلال كانون الأول عام ١١٦٨.

أما الافرنج فتقدموا صوب القاهرة، فما كان من شاور الا أن أحرق الفسطاط، ليمنع الافرنج من الانتفاع بها على أي نحو من الانحاء. وقد ظلت النيران تلتهم القسطاط طوال شهرين، على وجه التقريب. وتحصن الوزير المصري داخل القاهرة، وأخذ ينتظر وصول الجيش السوري. ولم يكتف بذلك، بل فاوض أموري على انسحاب الافرنج من مصر مقابل مليونين من القطعات الذهبية. ويبدو أن شاور قد ظل حتى تلك البرهة مقتنعاً بأن مصر سوف يمكنها أن تظل على الحياد، مع ان الأمر قد حسم تماماً، فإما أن تكون مصر للسوريين، وإما أن تكون للافرنج. فرفعوا الحصار عن القاهرة وانسحبوا إلى بلبيس. وحين سمع أموري بحملة أسد الدين، المؤلفة من سبعة آلاف جندي، زحف على سيناء لملاقاة الجيش السوري. ولكن هذا الجيش كان قد وصل القاهرة حين وصل أموري إلى سيناء. فعاد الافرنج الى بلبيس ـ وهي على التخوم الشرقية للدلتا ـ ولكنهم يئسوا من الأمر، بل أصبحوا في وضع الفريسة، فغادروا مصر وقفلوا عائدين الى القدس.

وفي القاهرة راح العاضد يحث أسد الدين على قتل شاور. فما كان إلا أن ذبحه صلاح الدين في شباط ١١٦٩، وقدم رأسه هدية للخليفة. وبعد شهر واحد

توفي أسد الدين شيركوه، القائد الفولاذي الشديد الخبرة بالحرب والشؤون العسكرية. وبادر الخليفة بتعيين صلاح الدين وزيراً لمصر، في الثالث والعشرين من آذار عام ١١٦٩، وأطلق عليه لقب الملك الناصر[٤٦].

غير أن الافرنج لم يعترفوا بالوضع الجديد، ولم يرضوا بالمصير الذي آلت إليه مصر. وأخذوا يفاوضون بيزنطة على حملة مشتركة ضد وادي النيل. وبالفعل جاء الاسطول البيزنطي وحمل القوات من مملكة القدس الى السواحل المصرية. وضربت القوتان المتحالفتان الحصار على مدينة دمياط. واستمر الحصار مدة شهرين. ولكن مصر صمدت لغزاتها وجابهتهم بضراوة. ويئس الطرفان المتحالفان من احتلال دمياط، فتقرر انسحابهما عنها. (١١٧٠). ولقد قيل أن العاضد قد استنجد بالامبراطور مانويل كومنين، الذي ورث اياه يوحنا، ليخلصه من السوريين.

وقيل كذلك أن الافرنج والبيزنطيين لم ينسحبوا من مصر الا بعدما تأكد لديهم أن صلاح الدين لايريد أن يقيم أي اتحاد مع نور الدين، بل أوردت المصادر البيزنطية مافحواه أن صلاح الدين قد أخذ يتقرب من الامبراطور البيزنطي. وهذا يعني أن وضع مصر لم يتغير بالنسبة الى الافرنج، وأما بالنسبة الى البيزنطيين، فإن ميزان القوى لم يتخلخل في المنطقة. ومما يؤكده المؤرخون أن مانويل كومنين، امبراطور بيزنطة (١١٤٣ ـ ١١٨٠)، قد كان محور سياسته الدائمة في الشام والأناضول، صيانة التوازن القائم بين الكيانات السياسية آنذاك.[٤٧].

أما خوف نور الدين من التدخل البيزنطي لصالح الافرنج، فما هو بخوف ولا جبن، بل مجرد تحوط. ففي زمن نور الدين لم تكن سوريا تتألف إلا من الخط الداخلي الواقع بين نهر اليرموك جنوباً وبين مدينة حلب وأراضيها شمالاً، أي من سوريا الحالية، باستثناء الجزيرة وجميع الأراضي الواقعة إلى الغرب من نهر العاصي. ولا ريب في أن مثل هذه الدولة ستكون شيئاً استثنائياً إذا ما استطاعت

أن تواجه الافرنج، والاحتياطي الذي تقدمه اوروبا لافرنج الشام. والجدير بالتنويه أن هذا الاحتياطي لم يكن سيله لينقطع طوال الحروب الصليبية.

ترى، هل يمكن لعاقل، في مثل هذه الحال، أن يرى في تحييد بيزنطة سوى خطوة ناجحة أنجزتها الدبلوماسية السورية عهد ذاك؟

والحقيقة أن الامبراطور مانويل الأول قد كان يعمل وفقاً لمبدأ التشاكم، أي أن يتمكن السوريون من شكم الافرنج، وأن يتمكن الافرنج من شكم السوريين أيضاً، بحيث لاتطغى أي من القوتين على الأخرى. وبهذا تظل حدود الامبراطورية البيزنطية آمنة إلى حد ما من جهة بلاد الشام.

والأهم من ذلك كله مملكة قونية ودورها في التقارب السوري - البيزنطي.

كان قليج أرسلان الثاني ملكاً طموحاً قوياً ماكراً ذا جيش ممتاز، سبق له أن جزر الجيش الألماني وهو يجتاز الأناضول. وقد حكم قليج أرسلان في قونية مدة طويلة (١١٥٦ - ١١٩٢) قضاها في الحروب مع جميع جيرانه على وجه التقريب، ولاسيما مع فسيفساء من الدويلات الصغيرة المنتشرة في الأناضول، وبخاصة مع إمارة كبادوكيا التي تحكمها أسرة داتشمند التركية. وقد استطاع قليج أرسلان أن يهزم جميع خصومه، باستثناء نور الدين ووريثه صلاح الدين. وما كان الامبراطور البيزنطي يخاف أحداً في الشرق كما كان يخاف من قليج أرسلان. ولقد ثبت فيما بعد أن مخاوفه في موضعها.

وكان نور الدين يخاف قليج أرسلان أيضاً. فالتقت مصلحة سوريا مع مصلحة بيزنطة. وحين قام الامبراطور البيزنطي بحملته المشهورة على انطاكية (١١٥٨) ليؤدب أرناط الذي ارتكب الفظائع في قبرص، وهي من أملاك الامبراطور، وبعدما دخل المدينة دخول الفاتحين (١١٥٩)، أبرم اتفاقاً مع نور الدين يقضي بعدم اعتداء بيزنطة والافرنج على سوريا، شريطة أن يتفرغ نور الدين لمحاربة قونية[٤٨].

والارجح أن الدبلوماسية السورية ما وقعت هذا الاتفاق يومذاك الا لأن

مانويل قد أصبح أقوى ملك في غرب آسيا. ويبدو أن الاتفاق لم يكن أكثر من خدعة حققتها الدبلوماسية السورية لتضمن عودة مانويل الى بيزنطة وعدم اعتدائه على سوريا في تلك السنة، إذ أن مانويل قد جاء إلى انطاكية بجيش جرار لاتقوى على مواجهته الا الامبراطوريات الكبرى. فمن سنن الحياة أن الأضعف يلبد في الأرض أمام الأقوى. وليس في ميسور الأضعف أن يصنع شيئاً سوى اللجوء إلى المراوغة.

ولكي يذر نور الدين الرماد في عيني مانويل، فإنه أقدم بالفعل على مناوشة قليج أرسلان. وأدرك مانويل أن نور الدين قد خدعه، إذ هو لا يريد أن يحارب قونية بالفعل، لأن إضعاف قونية سوف يحرم سوريا من الدرع الذي يقيها شر الامبراطور، وشر الحملات الصليبية الآتية من اوروبا، والتي اثبتت التجارب السابقة أن لقونية أثراً سلبياً جسيماً عليها.

ولهذا فقد راح مانويل يعمل على التقرب من الافرنج. فزوّج تيودورا، ابنة شقيقه، للملك بلدوين الثالث، وعمرها يومذاك ثلاث عشرة سنة. ولجمالها الباهر، فقد خلبت لب زوجها الافرنجي. كما أقدم هو نفسه، أي مانويل، على الزواج من امرأة افرنجية تسمى ماريا الانطاكية، وذلك بعد وفاة زوجته الأولى، برتا، شقيقة زوجة كونراد الثالث، امبراطور المانية.

أما الملك أموري (واسمه الافرنجي امالريك) فقد تزوج ماريا كومنينا، وهي ابنة يوحنا شقيق مانويل. وهذا يعني أن امرأتين من أسرة كومنين قد اتيحت لهما الفرصة أن تتدخلا في شؤون مملكة القدس.

وحين اختل التوازن لصالح السوريين بعد ضم مصر إلى سوريا، أو قل بعد سيطرة صلاح الدين على مصر، فإن الامبراطور البيزنطي قد انحاز علناً الى الافرنج، واشترك معهم في الحملة على دمياط.

وخلاصة القول أن بيزنطة قد كانت في حاجة الى سوريا، مثلما كانت سوريا في حاجة الى بيزنطة. وكان بينهما تبادل خدمات، فبينما يشكم نور الدين

مملكة قونية ويمنعها من الهجوم على بيزنطة، فإن الامبراطور يكف عن التحالف مع الافرنج ضد نور الدين.

وأخيراً توصل نور الدين الى اتفاق مع قليج أرسلان عام ١١٧٣. وجن جنون الامبراطور، واتصل بالسلطان القونوي وأبلغه استعداده لمقاتلة سوريا إذا ماهاجمت أراضي قونية، شريطة أن يفك قليج أرسلان تحالفه مع نور الدين. والأرجح أن قليج أرسلان قد وافق على هذا العرض. ولا ندري ما اذا كانت موافقة السلطان القونوي جدية أم من قبيل المراوغة[٤٩].

وعلى أية حال، فإن سياسة نور الدين تجاه بيزنطة، أياً كان نوعها، لم تمنعه من محاربة الافرنج في مصر والشام معاً، ولا سيما، بين عام ١١٦٣ وعام ١١٦٩، إذ في هذه الفترة كان الافرنج في حالة وئام وتحالف مع البيزنطيين.

طور الوحدة والاقتحام

رأى الخليفة الفاطمي أن شاباً مثل صلاح الدين، وهو يومذاك في الثلاثين من عمره، سوف يكون مطية سهلة للخلافة إذا ما تسلم الوزارة بدلاً من عمه الراحل. وقد أثبتت الأيام أن رأي الخليفة ماكان الا ضرباً من البطلان. فلقد ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب ليكون رجل ادارة وسياسة وحرب.

رفض صلاح الدين، في مطلع أمره، أن يتعاون مع سيده نور الدين. ويزعم بعض المؤرخين الغربيين أن الايوبي لم يكن راغباً في إزالة مملكة القدس الافرنجية التي تفصل بين سوريا ومصر، وتفصل بالتالي بينه وبين الرجل المخيف الرابض في دمشق. فبينما راح نور الدين يلح على أن يهجم الجيش المصري على فلسطين من الجنوب وأن يهجم الجيش السوري عليها من الشمال في الوقت نفسه، صلاح الدين لم يستجب للطلب، متذرعاً بذرائع واهية[٥٠].

بيد أن الأيوبي كان يتفور بالنشاط في هذه الآونة. فقد ألغى الخلافة (١١٧١)، واحتل النوبة واليمن والحجاز والنصف الشرقي من ليبيا. (واحتلاله لجزء من ليبيا قد صب عليه غضب الموحدين، ولذا فإنه تصرف خاطىء لا مسوّغ له.) وحين تحرك أنصار الفاطميين بغية اعادة الدولة الفاطمية واحيائها من جديد، فقد لطمهم لطمة قاسية لم تقم لهم بعدها قائمة. وهكذا ثبّت الحكم الأيوبي في مصر دون منازع.

وحين أدرك نور الدين أن صلاح الدين يخادعه ريثما يتمكن في مصر ويثبت أركانه على أرضها، فقد صمم على أن ينهض بنفسه إلى هذه التابع ليرضخه

لسلطانه. ولكن المنية وافت الملك السوري وهو يعد العدة لغزو مصر (١١٧٤). ولم ينجب نور الدين سوى بنت وولد. وكان هذا الأخير، واسمه الصالح اسماعيل، في عامه الحادي عشر يوم توفي أبوه بداء الذبحة الصدرية.

وما ان علم صلاح الدين بوفاة السلطان في شهر أيار، حتى انقض على سوريا دون ريث أو إبطاء. وفي تشرين الأول من العام نفسه، أي بعد مضي خمسة أشهر على وفاة نور الدين، كان الأيوبي قد احتل دمشق. وفرّ الصالح اسماعيل الى حلب، واستنجد بالموصل، وبالصليبيين وبالحشاشين، وجيّش وخرج لملاقاة صلاح الدين، الذي أعلن أنه يحكم البلاد باسم الصالح اسماعيل.

والتقى الايوبيون والزنكيون في نيسان ١١٧٥، قرب مدينة حماة، حيث انتصر الايوبيون انتصاراً حاسماً. وتلا ذلك صلح بين الطرفين يعترف بموجبه الزنكيون لصلاح الدين بأن يملك جميع الأراضي الى الجنوب من حماه، مقابل أن يعترف الايوبي للزنكيين بجميع الأراضي الى الشمال من حماه. ولكن القتال سرعان ماتجدد بين الطرفين في العام التالي. وانتصر صلاح الدين مرة أخرى. وتوسط الخليفة في الصلح. وتقرر أن تظل حلب للصالح اسماعيل. ولكن هذا قد توفي سنة ١١٨١. فسارع صلاح الدين الى حلب وحاصرها ثلاث مرات، واستطاع أن يحتلها عام ١١٨٣. وبعد ذلك بثلاث سنوات استطاع أن يضم الجزيرة إلى ملكه، بما في ذلك الموصل.

والحقيقة أن الأيوبي قد كان محظوظاً بالفعل، فثمة ثلاثة أحداث كبرى خدمت هذا السلطان. فاثر وفاة نور الدين، وفي غضون انشغال الايوبيين بالحرب ضد الزنكيين في سوريا، تحررت مملكة قونية السلجوقية من الضغط السوري على حدودها الجنوبية. وهكذا حانت الفرصة المناسبة ليتحرش قليج أرسلان الثاني بالدولة البيزنطية ويجرها الى القتال في المكان المناسب للسلاجقة. كما أن السلطان القونوي كان قد سبق له أن أخضع جميع جيرانه الشماليين وضمهم الى ملكه، ولا سيما آل الدانشمند، وبذلك أنجز سلطنة واسعة متجانسة ذات امكانات

عسكرية جبارة. وضاق صدر مانويل بهذا الجار الذي يهدد الامبراطورية بأخطر مصير على الاطلاق. فما كان منه إلا أن جيّش واتجه صوب قونية. ولكن السلاجقة واجهوه وألحقوا به هزيمة فادحة في مير يوكيفالون الى الغرب من قونية، عام ١١٧٦. والجدير بالتنويه أن هذه المعركة تذكر بمعركة مناز كرد الانعطافية. والحقيقة أن الامبراطورية قد ظلت هزيلة منذ هذه المعركة وحتى يوم اندراجها في اكفانها. وهذا يعني أن الفاتح الحقيقي لمدينة بيزنطة هو قليج أرسلان الثاني، وليس محمد الفاتح. ولقد أدرك مانويل نفسه خطورة هذه الحادثة المصيرية، فظل مغموماً كئيباً حتى ساعة وفاته عام ١١٨٠، أي بعد مضي أربع سنوات على يوم المعركة.[٥١]

ومما زاد في الطين بلة أن بيزنطة قد اضطربت أحوالها الى حد لم تألفه من قبل، خلال العقد التاسع من القرن الثاني عشر. فقد توفي مانويل، آخر الاباطرة الأكفاء، وتولى السلطة من بعده ابنه الكسيوس الثاني الذي ما كان الا فتى مراهقاً في تلك الأيام. وبعد سنتين ثار الشعب ضد الكسيوس هذا، وضد أمه الوصية عليه، وهي ماريا الأنطاكية، التي اتهمها الشعب بالانحياز الى أقربائها الافرنج، والى تجار المدن الايطالية الذين كانوا يهيمنون على الاقتصاد البيزنطي.

واستغل الفرصة رجل مغامر من أسرة كومنين يسمى اندرونيكس، سبق له أن زار فلسطين وأغوى قريبته تيودورا، أرملة بلدوين الثالث، وهي الشابة الفاتنة، وأخذها سراً وغادر البلاد الى سوريا ثم الى احدى المدن البيزنطية في الأناضول الشمالي.

زحف اندرونيكس على مدينة قسطنطين بقوات بيزنطية وتركية معاً. ولدى اقترابه من العاصمة، هب الشعب وأجرى مذبحة رهيبة للايطاليين المقيمين في بيزنطة، وهم اناس كانوا يلتهمون الاقتصاد البيزنطي بجشع ونهم لايعرفان الشبع. وانتشرت المجازر حتى شملت جميع مدن الامبراطورية. وكان من جرائها أن ترسخت القطيعة بين البيزنطيين والغربيين.

ووصل أندرونيكوس إلى السلطة وقتل الامبراطور وأمه وعشيقها. وأخذ يضطهد أكابر رجال السلطة من افرنج وبيزنطيين. واستغل الفرصة الملك الصقلي وليم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٤) ملك صقلية المعادية للبيزنطيين منذ أيام مانويل، بل منذ الحملة الصليبية الثانية التي وصلت الى بيزنطة عام ١١٤٧. فزحف الصقليون على بيزنطة ووصلوا الى أسوارها. فالتف الشعب حول رجل يسمى اسحق انجيلوس، الذي استولى على القصر وقتل اندرونيكوس وأنهى عهد أسرة كومنين (١١٨٥). أما الصقليون الزاحفون من أجل الثأر للمجازر التي ارتكبها البيزنطيون بحق الغربيين، فلم ينسحبوا الا بعدما الحقوا بالامبراطورية الكثير من الدمار، والا بعد النهب والذبح الوحشي.

وبعدما تسنّم اسحق الثاني العرش في بيزنطة فقد وجد نفسه مرغماً هذه المرة على التحالف مع صلاح الدين الأيوبي ضد الغربيين. وهكذا صار أعداء الأمس أصدقاء اليوم، وزالت واحدة من أكبر العقبات التي كان يخشاها عماد الدين ونور الدين. وخسر الصليبيون أقوى حليف لهم في الشرق (١١٨٩).[٥٢]

أما في بغداد فقد تمرد الخليفة الناصر لدين الله على السلطان السلجوقي في أصبهان، وأسس مملكة عراقية صغيرة تضم العراق الأوسط والجنوبي فحسب. والتفت حوله ليلقى في صلاح الدين حامياً ممتازاً يحميه من خطر السلطان. ولهذا وقف الخليفة مع صلاح الدين في صراعه ضد الزنكيين في سوريا والجزيرة، ولا سيما بعد وفاة الصالح اسماعيل. واستشاط الخليفة غضباً حين أرسل له الأيوبي رسالة تتحدث عن اتصال الزنكيين بمن أسماه «سلطان العجم»، أي بالعدو الأكبر للناصر العباسي. فما كان من الخليفة الا أن راح يضغط على أمير الموصل، زنكي الثاني، ليجبره على الدخول في طاعة صلاح الدين (١١٨٦)، وذلك بعد انتزاع الأيوبي لمدينة حلب من الزنكيين بمباركة الخليفة.

ويبدو أن صلاح الدين قد كان في نيته أن يصير للمشرق الاسلامي سلطانان يحجز بينهما الخليفة بدولته العراقية الصغيرة: سلطان العجم، ومركزه

أصبهان، وسلطان العرب ومركزه القاهرة. فلقد أصبحت الدولة الأيوبية تضم الجزيرة والشام والحجاز واليمن والنوبة ومصر وبرقة (ليبيا الشرقية).

أما الحادث الثالث فهو التضعضع المريع الذي أصاب الامارات الصليبية، وبخاصة مملكة القدس، بعد وفاة الملك بلدوين الرابع (تلميذ المؤرخ وليم الصوري، صاحب تاريخ الأعمال وراء البحار) وذلك عام ١١٨٥، وقد ورثه الملك بلدوين الخامس، الذي لم يعش أكثر من سنة واحدة في السلطة. فقد مات ليترك عرش القدس لرجل غر طارىء على البلاد يسمى غاي لوزنيان. وقد ناهضه كبار الاقطاعيين في المملكة، كما ناهضه ريموند الثالث، أمير طرابلس، الذي عقد صلحاً مع الأيوبي أملاً في أن يدعمه هذا الأخير بغية الوصول الى عرش القدس. والحقيقة أن الكيانات الصليبية قد أخذت بالتضعضع ابتداء من وفاة الملك أموري (وأحياناً يكتب عموري) بعد شهرين من وفاة نور الدين. وفي الحق ان من حسن حظ الأيوبي أن يقاتل ضد ثلاثة ملوك ضعاف حكموا مملكة القدس على التوالي خلال الثلاث عشرة سنة السابقة مباشرة لمعركة حطين. ووفقاً لنظرية ابن خلدون، فإن هذه السلسلة من الملوك الضعاف هي علامة انحطاط ودلالة اتضاع في بنية المجتمع الفرنجي. أما قوة الايوبيين فقوة فتيّة ناهضة تدخل في خط الجدل الصاعد. وهذا يعني أن صلاح الدين قد صال بقوة شابة على قوة شائخة[٥٣].

أما انطاكية فقد كانت شديدة الوهن في تلك الآونة الخطيرة. فما مات نور الدين الا وقد أحالها الى كتلة من الرماد. ولهذا فإنها لم تسهم في معركة حطين إلا بخمسين فارساً وحسب. وقد شعر أميرها بوهمند الثالث بضعف امارته، فما كان منه إلا أن راح يتقرب من الامبراطور البيزنطي، مانويل الأول، بل لقد ارتبط بالامبراطور بعلاقة مصاهرة، إذ لقد تزوج بوهمند الثالث بإحدى قريبات مانويل (١١٧٧). وأثر هذا الزواج أرسل الامبراطور أسطوله الشديد القوة لمهاجمة مصر بالتعاون مع الافرنج.

وأما امارة طرابلس، فما كانت طوال حياتها الاديلة هزيلة خاملة. إذ مالم يهاجمها السوريون، فإنها قلما تفكر في الحرب، ومع أنها كانت تستمتع بأمير قدير عشية ظهور الايوبيين على مسرح التاريخ في مصر، فإنها لم تستطع أن تقدم الكثير لمملكة القدس التي استهدفها صلاح الدين قبل سواها. وأخطر مافي أمر طرابلس أن اميرها اختلف مع الملك غاي، الشيء الذي اتاح الفرصة أمام الأيوبي كي يتسلل الى داخل الثغرة الفاصلة بين الرجلين الفرنجيين. وبذلك خسر ريموند الثالث، الشديد الخبرة بشؤون السياسة والحرب، ثقة اخوانه الصليبيين.

لم تتوقف جهود صلاح الدين عند حركة التوحيد وتكتيل القوى العربية (التي تجدد شبابها بانخراط بعض الأتراك والأكراد في المجتمع العربي)، بل التفت كذلك الى تنشيط الاقتصاد المصري، بحيث يصير قادراً على حمل الجيوش الجرارة الناهضة بمهمة الاسترداد. وقد اقتضت خطة الأيوبي الاقتصادية أن يكون البحر الأحمر بحيرة عربية ينعدم فيها وجود الاوروبيين، وذلك نظراً لأن هذا البحر هو الشريان الذهبي لتجارة الشرق الأقصى. وأدرك الأيوبي؛ بحصافته النادرة، إن الاقتصاد الصليبي في الشام لن يتهافت أو يضمر الا اذا استطاعت مصر أن تجذب التجار الايطاليين إليها بدلاً من أن تجذبهم المدن الصليبية في السواحل الشامية. ولكنه، في الوقت نفسه، ماكان يريد لهؤلاء التجار الايطاليين أن يهيمنوا على الاقتصاد المصري، كما كانوا يهيمنون على الاقتصاد البيزنطي، مما أدى الى كوارث في الامبراطورية البيزنطية لم تنهض منها قط. (بل يمكن القول بأن هيمنة التجار الايطاليين على الاقتصاد البيزنطي قد أفرز طبقة بورجوازية معادية للوطن الذي حل فيه. وان وطناً تعاديه بورجوازيته نفسها لابد له من الاندثار. وهذا واحد من أهم الأسباب المباشرة التي أدرجت الامبراطورية البيزنطية في أكفانها). ولهذا حرم الأيوبي على الايطاليين أن يتعدوا مدينة الاسكندرية، التي صارت في زمن الايوبيين أبرز مدينة على البحر المتوسط كله، كما حرّم عليهم الدخول في البحر الأحمر بحجة أنه «بحر مقدس»،

وذلك نظراً لاطلاله على الحرمين الشريفين اللذين لايجوز لغير المسلمين أن يصلوا إليهما.

جاء السفراء من جنوة والبندقية وبيزا إلى مصر، تحدوهم الرغبة في الافادة من تجارة الشرق الأقصى، ووقعوا مع الدولة الأيوبية اتفاقيات اقتصادية كان من شأنها أن تعزز الاقتصاد المصري وأن تنعشه وتعيد إليه حيويته التي كانت له قبل بداية الحروب الصليبية، مثلما كان من شأنها أن تضعف الاقتصاد الصليبي في الشام، لأن مدن الشام الساحلية، من انطاكية حتى يافا، ماعادت مراكز استقطاب تجاري، وذلك لأن بضائع الشرق الأقصى قد صارت تمر عبر البحر الأحمر وتتابع طريقها الى الاسكندرية.

وقد شدد السلطان الأيوبي على الايطاليين كي يجلبوا الى مصر الأسلحة والخشب والحديد من أجل بناء الأسطول. فقد أدرك صلاح الدين أن من أهم عوامل التفوق الافرنجي هو تفوقهم في البحر، وأن مصر لن تنتصر على الصليبيين من دون اسطول يهيمن على التجارة من جهة، ويسهم في حصار المدن الساحلية القوية، من جهة أخرى.

وبهذا الجذب الجديد أصبحت الاسكندرية نقطة ازدلاف تلتقي فيها بضائع الشرق والغرب. فقد قال عنها وليم الصوري انها «سوق العالمين». فصار التجار الايطاليون يفدون اليها محملين بالبضائع الاوروبية، ويؤوبون منها وقد امتلأت سفنهم بالبضائع الآسيوية، ولا سيما التوابل والأقمشة والمجوهرات والورق والبارود. وفي رسالة بعث بها صلاح الدين الى الخليفة، وكتبها القاضي الفاضل بلغته الأنيقة الرصينة، وقد كان يومها رئيس الديوان السلطاني، ما يشرح هذه العلاقة التجارية بين مصر وايطالية، على نحو شديد الوضوح. وقد جاء في هذه الرسالة (١١٨٢م) التي دوّنها القلقشندي في «صبح الأعشى»، وأبو شامة في «الروضتين»: «ومامنهم الا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قُررت معه المواصفة، وانتظمت معه

المسالمة، على مانريد ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون». وفي السطر الاخير من هذا المقبوس الصغير يتضح لك مافحواه ان الهيمنة في هذه العلاقة إنما كانت لمصر ولصالح مصر. ومما هو شديد الوضوح من نص الرسالة أن الدولة الايوبية قد كانت تشتري السلاح من ايطالية، وذلك نظراً لندرة الحديد في جميع اقاليم الدولة الايوبية.[٥٤]

سبق للافرنج أن أقاموا حصنين كبيرين قرب البحر الميت، وهما حصن الكرك وحصن الشوبك، وذلك ابتغاء التحكم بطرق القوافل عند ملتقى أربع جهات هامة: الى الحجاز والى الشام، ثم الى مصر والى العراق. ولهذا فقد راحوا يهيمنون على تجارة العالم العربي، وهي التجارة التي عاشت الدويلات الصليبية على ضرائبها، كما راحوا يتحكمون بطرق الحج التي تدر الكثير من الأرباح. فالحقيقة أن المدن الافرنجية في سواحل الشام، ما كانت الا الوسيط التجاري بين آسية من جهة الشرق وبين أوربا من جهة الغرب. ولسوف يكون سقوطهم محتوماً حين يخسرون هيمنتهم على شرايين التجارة الدولية، أوعلى واحد من أهم شرايينها باطلاق، أقصد الشريان الذي يربط الصين والهند بأوروبا عبر غرب آسيا وشمال افريقيا. وبالطبع كان من الميسور أن يمر هذا الشريان بالخليج ليتجه شمالاً عبر العراق الى بيزنطة، ولكن حروب الأناضول بين قليج أرسلان الثاني واعدائه الاتراك والبيزنطيين، وكذلك المجازر التي دبرها الشعب البيزنطي للتجار الايطاليين، قد كانا عاملين أرغما شريان الشرق الأقصى التجاري على التحول عن العراق والأناضول والأراضي البيزنطية. وكان لابد له من طريق آخر. وما من طريق آخر أسهل من البحر الأحمر. ولكن الدولة الأيوبية قد هيمنت على هذا البحر ومنعت غير المسلمين من المرور فيه.

وأدرك أرناط، أمير الكرك والشوبك، ان مملكة القدس مالم تهيمن على البحر الأحمر، أومالم تدخل فيه كشريك، على الأقل، فإنها سوف تضمر وتموت دون حرب. ولهذا، فقد استغل فرصة انشغال الايوبيين في حربهم ضد الزنكيين

من أجل الهيمنة على حلب (١١٨٣)، واحتل ايلات على خليج العقبة، وصنع اسطولاً صغيراً وراح يحاصر احدى الجزر في الخليج نفسه. ولم يكتف بهذا بل أرسل اسطوله في البحر بعدما أمره بأن ينهب المدن الساحلية، وأن يأسر جميع السفن التجارية التي يصادفها في طريقه، ثم يتقدم رجاله مشاة من مدينة يثرب لينقلوا الى مدينة القدس ضريح الرسول العربي بحيث يصير المسلمون يحجون في القدس بدلاً من الحجاز. ونفذ الاسطول معظم أوامر أرناط، فكانت غارة همجية تذكر بغارة الأمير نفسه على جزيرة قبرص، قبل أن يؤسر ويسجن في حلب.

فاستشاط صلاح الدين غضباً، وأمر قائد الاسطول المصري، واسمه لؤلؤ، بأن يطارد هؤلاء القراصنة وأن يفتك بهم إلى حد الابادة. وبالفعل تحرك الاسطول وأحاق بالافرنج وبسفنهم. ودارت معركة بين الطرفين الى الشرق من مدينة الرسول. وأسر اسطول أرناط وجميع رجاله، وحوصرت الجزيرة التي احتلها أمير الكرك الافرنجي، فما كان منه الا أن هرب. أما رجاله الذين اسروا فقد قتلوا جميعاً في يثرب والقاهرة، وعلى مرأى من الناس(**).

لقد غاب عن بال أرناط أن عمليته الهمجية هذه قد فات أوانها. فلو استغل الافرنج في الشام ضعف البحرية المصرية قبل صلاح الدين لسيطروا على البحر الأحمر. أما اليوم فقد تغير الحال تماماً. وأغرب مافي أمر الصليبيين أنهم عاشوا في الشام مائتي سنة دون أن يملكوا اسطولاً يخصهم وحدهم، مع أن معظم مدنهم في الشام قد كانت مدناً ساحلية. والحقيقة أن عدم انتباه افرنج الشام لأهمية الاسطول والبحر قد كان عاملاً جوهرياً بين عوامل زوالهم. وليس صدفة أن يسبقهم الأيوبي الى انشاء الاسطول، فلقد جاء معظمهم، ان لم نقل كلهم من بلدان تفتقر إلى التقاليد البحرية يومذاك. أما مصر العريقة في الحضارة، فقد أنشأ فيها الأيوبي وزارة خاصة بالبحر سماها ديوان الاسطول.

وأياً ماكان الشأن في جوهره الحي، فإن صلاح الدين قد أنجز الخطوتين

الكبيرتين المهدتين للقضاء على الصليبيين في الشام (فضلاً عن خطوة التوحيد): فك ارتباطهم بالتجارة الدولية، وفك ارتباطهم ببيزنطة، درعهم الوحيد في الشرق. وعند ذلك لم يبق سوى الاقتحام.

ثم أبرم صلاح الدين هدنة مع القدس بعد غارة موفقة شنها على الجليل انتقاماً لهمجية أرناط وغارته الوحشية في البحر الأحمر. وما وقع الأيوبي اتفاقية الهدنة الا ليتفرغ لشأن الموصل (١١٨٦)، ابتغاء ضمها الى مملكته. وحين حسم أمر تلك المدينة ظل الأيوبي محافظاً على السلم، ولكنه، بكل توكيد، كان يتطلع بحرارة الى ماينقض الاتفاقية، إذ لقد حان الحين لمداهمة الافرنج واقتلاع وجودهم، أو قل لانجاز غرضين كبيرين: استرداد القدس وإبعاد الافرنج عن البحر الأحمر، أغزر شريان بين شرايين التجارة الدولية. والحقيقة أن الحرب التي اندلعت في حزيران عام ١١٨٧، ولم تتوقف الا في ايلول عام ١١٩٢، قد انجزت هذين الغرضين دون أدنى ريب.

فبينما الأيوبي يتحرق شوقاً إلى ماينقض الهدنة، تدخل الأمير الأحمق أرناط، وهو دون ريب رجل مغمى عليه إلى حد أعماه عن معرفة مايجري من حوله، فهاجم احدى القوافل العربية المارة بأرضه وقتل حراسها وجاء بتجارها وبضائعها الى قلاعه الحصينة. وبالطبع كان الأيوبي على أتم استعداد ليدفع لأرناط أموالاً باهظة كي يقدم على هذا الخرق لشروط الهدنة في أوائل عام ١١٨٧. وعلى أية حال فقد وجد صلاح الدين سبباً وجيهاً لشن حرب شاملة.

وأقسم السلطان أن يقتل أرناط بيده، ان ظفر به، وذلك لاعتدائه على الحرمات والمقدسات.

في البداية حاول صلاح الدين أن يحل الأزمة بالطرق الدبلوماسية، فأرسل السفراء الى القدس ليحتجوا لدى الملك غاي على هذا العدوان الصارخ، وليطالبوا بتفادي الأمر ورد الأموال الى التجار واطلاق سراحهم. ولكن الملك الهزيل، غاي لوزنيان، لم يستطع أن يؤثر على تابعه أرناط الذي رفض الانصياع

لأوامر الملك، فأثبت بذلك أنه في غيبوبة سباتية عميقة، لأن الأيوبي لم يكن يريد من أرناط الا أن يصر على التشبث بالقافلة المأسورة.

وهكذا أخفقت الأساليب الدبلوماسية في حل المعضلة، فنال السلطان المسوّغ الكافي لخوض حرب الاسترداد الشاملة.

في صبيحة الأول من أيار (١١٨٧) حركت القيادة الأيوبية قطعة عسكرية مؤلفة من سبعة آلاف فارس، يقودها أمير جزري يسمى مظفر الدين كوكبوري، فانطلقت من بانياس الاردن (التي سبق لنور الدين أن انتزعها وانتزع قلعتها الحصينة من امالريك عام ١١٦٧)، ودخلت فلسطين ابتغاء استطلاع أرض الجليل. والأرجح أن الأيوبي قد اختار الجليل، وليس القدس، ليؤجل استنفار أوروبا وهجومها في حملة جديدة. ومن شأن التأجيل أن يمنحه الفرصة الكافية لافتراس مملكة القدس.

وأخذت القطعة اذناً مسبقاً من ريموند الثالث الذي كان الجليل ملكاً لزوجته اميرة طبرية، الكونتيسة ايشيفا. وقد أذن امير طرابلس لهذه القطعة بالمرور في أراضيه بوصفه معاهداً لصلاح الدين.

وقرب عيون كريسون، بين صفورية وكفر كنة، الى الشمال من الناصرة، التقت هذه السرية الايوبية بفرسان الداوية والاسبتارية وذبحتهم عن بكرة أبيهم على وجه التقريب. وكان مقدم الاسبتارية، جيمس مايلي، من جملة القتلى. أما جيرار، مقدم الداوية المتبجح فقد هرب ومعه فارسان فقط. وكان جيرار هذا قد وعد أهل الناصرة بغنيمة كبرى قبل المعركة. فخرج الناس الى مكان الصدام وهم يمنون أنفسهم بالخير الوفير، ولكن الفرسان الأيوبيين احاطوا بهم واسروهم وجروهم بالحبال الى بانياس.[٥٦]

بعد هذه الموقعة شعر الافرنج بالحرج، بل بخطورة الموقف، فما كان من بعض قادتهم إلا أن ضغطوا على كل من ريموند الثالث والملك غاي بغية اصلاح ذات البين، وقد نجحوا في ذلك بالفعل، وتصالح الرجلان واتفقا على مواجهة

صلاح الدين بجيش موحد. وبالفعل قاد ريموند جيشه ليرفد جيش القدس الذي أخذ يحتشد في عكا خلال شهر حزيران (١١٨٧).

وجعل السلطان من قرية عشتر، في حوران الغربي، مكاناً لازدلاف قواته التي جاءت من جميع أرجاء مملكته الواسعة. وحين تكامل الحشد عبر صلاح الدين نهر الاردن في أواخر حزيران، عند سن النبرة، الى الجنوب من بحيرة طبرية، تماماً حيث عبر مودود قبل ذلك بأربعة وسبعين سنة. ثم قام الجيش الأيوبي بالهجوم على طبرية، فاحتلها بسرعة، ولكن الأميرة ايشيفا تحصنت في القلعة وأرسلت الرسل تستنجد بزوجها وبالملك اللذين نقلا معسكرهما المشترك من عكا الى صفورية بعدما عبر صلاح الدين نهر الاردن.

وعند ذاك ترك السلطان شطراً من جيشه وتحرك إلى كفر سبت التي لاتبعد عن طبرية غرباً أكثر من بضعة أميال. ووزع كمائنه توزيعاً محكماً بين طبرية وصفورية، بحيث لا يستطيع الافرنج، ان هم تحركوا شرقاً، أن يخوضوا معركتهم الفاصلة إلا في المكان الذي تختاره القيادة الايوبية، وبالطبع في زمن الحر القائظ الذي سبق للسلطان ان اختاره عن سابق عمد وتصميم.

وقرر الصليبيون الزحف على طبرية لانجاد الأميرة المحاصرة. بيد أن ريموند، وهو رجل حكيم بقدر ما كان أرناط أحمق، نصح الملك بأن لا يغادر صفورية في هذا الفصل القائظ. وأضاف أنه «على كثرة ما رأى من جيوش الاسلام، لم ير مثل هذا الجيش الذي مع صلاح الدين من حيث الكثرة والقوة»[٥٧]. وأكد أن السلطان لايملك أن يبقى في طبرية طويلاً، لأن السأم سوف يتأكل جنده فيعودون الى ديارهم في نهاية موسم الغزو الذي لابد من انتهائه مع حلول الشتاء. وطمأن القوم بأنه قادر على افتداء زوجته من أسر الأيوبيين، ومعها جميع الأسرى. ونبههم الى أن صلاح الدين لن يتجرأ فيهاجم المعسكر في صفورية، وإذا مافعل ذلك فإن الافرنج يكونون في وضع دفاعي ممتاز، فالماء موفور للجنود والخيول، وكذلك المؤونة والتحصينات.

واقتنع الملك برأي ريموند الحصيف، غير أن مقدم الداوية، وكذلك أرناط أمير الكرك، قد اتهما ريموند بالجبن والخيانة والتواطؤ مع صلاح الدين.

وهكذا عدل الملك عن رأيه، وأمر عند فجر الجمعة، الثالث من تموز (١١٨٧)، بالتحرك الى طبرية.

ما ان غادر الصليبيون معسكرهم في صفورية حتى انقضت عليهم الكمائن الأيوبية من معظم الجهات، وأخذت تمطرهم بالسهام والحراب، وتضغط على مؤخرتهم التي كان يقودها أرناط، وكأن هذه الكمائن تسوقهم الى ضريحهم سوقاً.

وعندما وصلوا الى لوبية، التي لاتبعد عن طبرية سوى ثمانية أميال، اشتد الضغط على المؤخرة الى حد كبير، وهذا معناه أن القيادة الايوبية تريد للافرنج أن يتوقفوا هنا وأن يخوضوا معركتهم المصيرية في هذا المكان على وجه الضبط والحصر. فهم ماعادوا يبعدون عن معسكر صلاح الدين أكثر من ثلاثة أميال. وتحت شدة الضغط الأيوبي أرسل الملك الى ريموند الذي كان يترأس المقدمة المؤلفة من الفرسان، يأمره بالتوقف. وادرك ريموند بالبداهة أن التوقف في لوبية، حيث لاماء في ذلك الفصل، سوف يعود بالوبال على بني جلدته..

فما كان من الأمير الحاضر البديهة الا أن انحرف يساراً باتجاه الشمال حيث يمتد ممر صغير يجتاز هضبة سهلية أو شبه سهلية تسمى القنارة (بكسر القاف وتشديد النون)، وتقع الى الشمال من لوبية منحرفة الى الشرق بعض الشيء، وفيها بركة ماء يسميها أهل لوبية بركة الرق (أي الرخ) وهي تجف في الصيف جفافاً تاماً. أما الممر الصغير الضيق فيهبط من الهضبة باتجاه الشمال الشرقي الى بلدة حطين التي لا تبعد عن لوبية سوى ثلاثة أميال. ولسوء حظ ريموند، وجد الكمائن الأيوبية تسد الممر المفضي الى عين حطين، وتحول بين الصليبيين والماء. والأرجح أن ريموند قد حاول بعد ذلك أن يتابع المسير باتجاه بحيرة طبرية المتألقة في وهج الظهيرة الى الشرق من لوبية. ولكن الجيش الايوبي قد سدّ الطريق الى طبرية وبحيرتها وأرغم الافرنج على التوقف محصورين بين الكمائن العربية المحيطة بهم

من جميع الجهات. وههنا صرخ ريموند صرخته المشهورة: «يالله، انتهت الحرب، لقد هلكنا وزالت المملكة».

يالريموند المستيقظ الى حد الاعجاز!

يقيناً، لو كان ريموند ملكاً على بيت المقدس، لكانت كارثة الصليبيين أخف بكثير.

الى الشرق من القنارة، والى الجنوب من حطين، يربض تل عالٍ ذو قرنين صخريين، كل منهما يشبه فوهة بركان. وفي السفح الجنوبي لهذا التل المستطيل، الممتد من الشرق الى الغرب، خيّم ريموند ومعه فرقة الفرسان كلها. أما الملك غاي، ومعه المشاة، فقد خيّم الى الغرب من لوبية حيث تنداح أرض سهلية واسعة[٥٨].

وقد سبق للأيوبي أن خيّم في كفر سبت، الى الجنوب من تل حطين. وثمة سهل واسع نسبياً يفصل بين صلاح الدين وريموند. والسكان المحليون يسمونه سهل الحمى. وهو محاط من الشمال بتل حطين المستطيل، ومن الجنوب بتلال كفر سبت الموازية لتل حطين في الامتداد من الشرق الى الغرب، أما من جهته الغربية فتحيط به تلال أو مرتفعات متماوجة تجثم فوقها بلدة لوبية. ولكنه من الشرق ينحدر انحداراً شبه عمودي باتجاه غور الاردن حيث ترخم بحيرة طبرية الخلابة.

وهكذا حمى صلاح الدين ظهر جيشه بتلال كفر سبت، بينما حمى ريموند ظهر جيشه بتل حطين. ولكن، بينما كانت القوة الأيوبية مرتاحة وحسنة الامداد والتموين والاتصال بنهر الاردن وبحيرة طبرية، كان الافرنج يكابدون التعب والسهر وقلة الماء وحر الصيف وضغط الكمائن. ونام الطرفان مساء الجمعة وهم على هذه الحال. أما صلاح الدين نفسه فلم ينم قط تلك الليلة، بل ظل ساهراً يشرف على ترتيبات المعركة.

في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت، الموافق للرابع من تموز

(١١٨٧)، أي قبل ثمانمائة سنة من الآن، بدأت أشهر معركة في تاريخ الحروب الصليبية. ومع ان تلك المعركة لم تستمر سوى سبع ساعات فقط، فإنها قد أحدثت من النتائج مالم يعرف من قبل.

وعلى الرغم من كل خلاف على تحديد مكان المعركة بكل دقة، فإن ساحة القتال يوم السبت يمكن تعيينها بواسطة الاستقراء الصائب قطعاً، وذلك انطلاقاً من الرواية التي سجلها ابن الأثير في الجزء التاسع من «الكامل»، والتي نقلها عن الأفضل بن صلاح الدين، وهو من شهد المعركة مع أبيه. فلقد ظل الفرسان الأيوبيون والفرسان الافرنج يكرون ويفرون بين سهل الحمى (الى الشمال من معسكر صلاح الدين) وبين السفح الجنوبي لتل حطين، الى أن تمكن جنود السلطان من الاستيلاء على خيمة الملك غاي، التي نصبها عند الظهر بين قرني التل الصخريين، حيث ينبسط منخفض سهل الارتقاء وصالح للتخييم.

استيقظ ريموند في الصباح الباكر، والأرجح أنه حاول من جديد أن يشق دربه عبر هضبة القنارة الى عين حطين، وهي على مبعدة كيلومتر واحد منه.

وبالطبع تصدت له الكتائب الأيوبية وحالت بينه وبين الماء. ومن المحتمل أن يكون قد اتجه شرقاً عله يصل الى بحيرة طبرية التي لا تبعد عنه أكثر من ثماني كيلومترات، فاصطدم بالقوات الأيوبية فكر راجعاً الى السفح الجنوبي لتل حطين، المشرف على سهل الحمى من جهة الجنوب.

لم يبق أمام الكونت ريموند الا أن ينقض على السهل (وتسميه المصادر اللاتينية سهل باروف) الكثير الينابيع والمياه، ومن أهمها عيون بسّوم، القريبة من كفر سبت، أي من الكتلة الرئيسية للجيش الأيوبي، وهي الكتلة التي يقودها السلطان بشخصه. ويبدو أن الاستطلاع قد أخبر الكونت بأن الأطراف الشمالية، والشمالية الغربية بخاصة، من السهل قد كانت خالية من القوات الأيوبية. وهذه الاطراف شديدة القرب من ريموند، فانقض عليها، فدار القتال في

السهل، وبدأ الكر والفر. وفي أثناء التناحر المستعر تقدم بضعة فرسان الى المواقع الايـوبيـة وأخـبر وا السلطان بالحال المتردي للجيش الافرنجي. وأغلب الظن أن هؤلاء الفـرسـان قد أرسلهم الكونت نفسه ليفاوضوا صلاح الدين على انسحاب الجيش الطرابلسي من أرض المعركة، تاركاً جيش القدس لمصيره المحتوم. إذ بعد هذه اللحظة بقليل اندفع ريموند ومعه فرسان طرابلس وأغار بشراسة على ميمنة الجيش الأيـوبي التي كان يقـودهـا تقي الدين عمر، وهو ابن شقيق السلطان، فما كان من تقي الـدين إلا أن انسحب من مكـانـه ليـترك فراغـاً يمـر منـه ريمـونـد وفـرسـانـه. وحينما صار هؤلاء الافرنج خارج حقل المعركة عاد تقي الدين فأغلق الـدائـرة وسـد الثغـرة من جديد. فالسؤال المهم الآن هو هذا: ما دام ريموند قد استطـاع، بقـوة انـدفاع خيله، أن يفتح في الطوق ثغرة ويخرج، فلماذا لم يحاول أن يكـرّ من الخـارج الى الـداخـل ليخـتـرق الطـوق فيؤوب الى ساحـة الحرب؟ إذ الحقيقة أن ريموند، ماان صار خارج الطوق، حتى ولى الأدبار باتجاه طرابلس.

من أين هرب ريموند؟

لا شك في أنـه هرب على الطـريق المؤدي الى حطـين، والقـادم من لوبية عبر القنارة، أي من الجهة الغربية لتل حطين، لأن أي درب آخر كان اتخاذه ضرباً من المحال. فالى الجنوب معسكر صلاح الدين نفسه، حيث القوة الأيوبية كثيفة أيضـا، وذلـك ابتغـاء الحيلولة بين الافرنج وبين مدينة طبرية. أما الشمال الشرقي فعسـير الارتقـاء لشـدة انحـدار الارض باتجاه غور الاردن. وأما الشمال فمحجوز بتل حطـين الـذي لايمكن للخيل أن ترتقيه أبداً. فلم يبق سوى هضبة القنارة الممتدة الى الغـرب من ريمـونـد، والى الشمال الغربي أيضاً. وهذا يعني أنه قد هبط الى عين حطـين، فشـرب الفـرسان وشربت الخيول ثم تابع الركب طريقه الى الشمال باتجاه طرابلس.

وظـل فرسـان مملكـة القدس في المعركة، أما فرسان انطاكية الخمسون فقد هربـوا أيضـا. وأمـا المشـاة الـذين كان يقـودهم الملك غاي فقد اندفعوا باتجاه تل

حطين وتحصنوا فيه، ونصبوا خيمة الملك في المنخفض الذي بين القرنين. وعندما اندفع ريموند في الصباح باتجاه السهل، تقدمت بعض الكتائب الأيوبية واحتلت الأرض الفارغة التي صارت تفصل بين الفرسان والمشاة. ثم انقضت هذه الكتائب على مشاة القدس واثخنت فيها الجراح فتقهقرت على سفح التل حتى بلغت بعض الأماكن الحصينة، ثم رفضت الاشتراك في القتال، بسبب شدة التعب والظمأ. ومما زاد في الطين بلة أن الجنود الأيوبيين قد أشعلوا النار في الأعشاب اليابسة، وأن الريح كانت باتجاه الافرنج، فوقعوا في حرين، حر النار وحر المناخ، كما يقول ابن الأثير. وأما ثالثة الأثافي فهي السهام التي امطرها الجيش الأيوبي على رؤوس العدو وخيولهم، فقد جلب السلطان الى ساحة المعركة أربعمائة حمل نقلت على الجمال.

والحقيقة أن فصل المشاة عن الفرسان قد كان اللحظة الانعطافية في مسار المعركة. فالفارس الافرنجي المدرع تدريعاً كاملاً ثقيلاً، هو وفرسه، يحتاج الى جندي المشاة ليحميه. فما ان ضغط فرسان الداوية والاسبتارية (وهم أحسن جنود غاي على الإطلاق) على الجيش الأيوبي ضغطاً شديداً أدى الى مقتل عدد كبير من جنود السلطان، حتى أخذت الكتلة الرئيسية للجيش الأيوبي بالتقهقر أمامهم وذلك بغية استدراجهم الى مكان بعيد عن مواقع مشاتهم، وكذلك بغية تطويقهم من جميع الجهات تقريباً. وعند ذاك انقض عليهم الجيش الأيوبي وأعمل فيهم القتل، فأخذوا يتراجعون باتجاه التل. وخسروا صليب الصلبوت الذي اعتادوا على حمله في المعارك ابتغاء رفع المعنويات.

وبعدما انسحبب الكونت ريموند من حقل المعركة عند الظهر، انقض تقي الدين عمر فاحتل المواقع التي أخلاها جيش امارة طرابلس. ثم التحم تقي الدين مع الافرنج على سفح تل حطين، وكانت قواته مرتاحة بالفعل طوال الساعات الخمس الأولى من المعركة، بينما كان الجيش الافرنجي قد انهك.

وأخيراً تمكنت الكتائب الأيوبية من احتلال التل كله. وهدمت خيمة

الملك غاي، وجاءت بالملك نفسه مأسوراً الى صلاح الدين، ومعه جميع وجوه مملكته، ومن بينهم أرناط الذي قتله صلاح الدين بيده، لأنه دنس المقدسات الاسلامية، بدخول جنوده الى أرض الحجاز. كما قتل الأيوبيون مائتي فارس من الداوية والاسبتارية، نظراً لشدة عدائهم للعرب. أما الملك فسقاه السلطان «ماء مثلوجاً»، وأمنه، وقال له: «إن الملوك لا تقتل الملوك». ثم تعهد غاي بأن لايقاتل السلطان الايوبي بعد ذلك اليوم. ولهذا فقد أطلق صلاح الدين سراح الملك الافرنجي، وأرسله الى صور، بعد مضي بضعة أشهر من معركة حطين.

ترسبت أطياف من وقائع المعركة في ذاكرة السكان المحليين. فأهل حطين قد كانوا يعرفون أن ملك «الكفار» قد نصب خيمته ذات يوم بين قرني حطين. أما أهالي لوبية فيقولون أن وادي الشومر قد كان مملوءاً بجثث «الكفار». ووادي الشومر هذا ينحدر من الشطر الغربي لتل حطين، ويتجه صوب الجنوب ليتلاشى في سهل الحمى. والى الشرق من هذا الوادي تماماً دارت المعركة النهائة. وعلى مسافة جد قصيرة الى الشرق من وادي الشومر، وعلى يسار المسافر من لوبية الى طبرية، تمتد قطعة أرض متماوجة شديدة القرب من القرن الغربي لتل حطين، تسمى الكساير. ويعتقد السكان المحليون أن «الكفار» قد كسروا في هذا المكان على أيدي الصحابة (كذا!).

والى الجنوب من الكساير، وفي الزاوية الشمالية الغربية لسهل الحمى، ثمة قطعة أرض واسعة اسمها «الدميّة» (بفتح الدال وتشديد الياء). وفي الحق أن وصف الأفضل بن صلاح الدين لمشهد القتال في ساعته الأخيرة، لايترك مجالاً للريب في أن الأمر قد حسم في الكساير قبيل انتهاء المعركة.

والأرجح أن ريموند، في بداية حركاته، قد هبط من الكساير باتجاه سهل الحمى، أملاً في الوصول الى الماء. فتصدت له كتيبة أيوبية في أول السهل، عند زاويته الشمالية الغربية، أي في «الدميّة»، لتمنعه من الهيمنة على السهل ومن الوصول الى مياهه الكثيرة. والارجح أن الكونت المندفع بفرسانه كالصاروخ قد

أبـاد الكتيبـة المـدافعة عن السهل، فسمي المكان بالدميّة، نظراً لشدة ماسال من دماء الطرفين هناك.

والى الشرق الجنوبي من لوبية، ثمة عين ماء تسمى عين دامية، بل دامية فقط. وهي بين لوبية وكفر سبت حيث يعسكر صلاح الدين بالكتلة الرئيسية من جيشه. ويبدو أن هذه التسمية ليست من قبيل الصدفة هي الأخرى، مادام ان لها صلة بالدماء. وأغلب الظن أن ريموند بعدما انتصر في الدميّة، أول الأمر، قد ثابر على انـدفـاعـه جنـوبـاً باتجـاه عين دامية التي لاتبعد عن الدمية اكثر من ميلين أو ثلاثة. وههنا ارتطم الافرنج بأكثف دفاع يمكن أن يقدمه الجيش الأيوبي، فدارت بين الطـرفـين معـركـة حاميـة الوطيس عند الماء، وربما اختلطت دماء البشر بمياه العـين، فسميت عين داميـة. والحقيقـة أن المصادر العربية تصرّح بأن الافرنج قد انتصـروا على الأيـوبيـين في بدايـة هجومهم. وهذا هو انتصار الدميّة الذي مكن ريمـونـد من الـوصـول الى عين داميـة، حيث سال الـدم مدراراً، إذ لابد من أن يكون الافرنج قد استبسلوا من أجل الهيمنة على الماء، ولابد من أن يكون الدفاع الأيـوبي قد استبسـل من أجـل منعهم وصـدهم عنه. فما كان الا أن هزم الافرنج قرب العـين فارتـدوا الى سفـح التـل خائبـين. والحقيقـة ان المصادر العربية تذكر هزيمـة حلت بالافـرنـج بعـدمـا انتصـروا في البداية، وقبل انسحاب ريموند من المعركة عند الظهر. والارجح أنهم ماهزموا هذه الهزيمة الا في دامية.

أمـا اعتقـاد السكـان المحليـين بأن وادي الشـومـر قد كان مكتظاً بجثث «الكفار»، فأغلب الظن أنه اعتقاد صحيح. والحقيقة أن وادي الشومر ليس وادياً بكـل ماتعنيـه اللفظة من معنى، بل هو حفرة مستطيلة قليلة الانخفاض، صالحة للزراعة. وهي تمتد من الشمال الى الجنوب في الطرف الغربي لتل حطين، أو قل إن السفح الجنوبي للتل يبدأ، أو يكاد يبدأ، الى الشرق من وادي الشومر.

وفي المؤكـد أن فرقـة تقي الدين عمر قد هجمت على الافرنج بعد الظهر، أي بعد انسحاب ريموند من ساحة المعركة، ولكي يدخل تقي الدين الى ساحة

القتال كان عليه أن يعبر وادي الشومر، الواقع الى الشرق من هضبة القنارة. ولابد من أن يكون الصليبيون قد تصدوا له في الوادي، أو عند حافته الغربية، أو حافته الشرقية، وهذا هو الأرجح، لأن الوادي يصلح حصناً ليتحصن الافرنج خلفه، أي الى الشرق منه، مادام الهجوم قد أتى من الغرب، او الشمال الغربي. ولابد من أن يكون القتال قد استعر بين فرقة عمر وبين احدى كتائب الافرنج في ذلك الموضع، إذ تؤكد المصادر العربية أن الهجوم الذي شنه تقي الدين عمر قد كان شديد العنف، وربما كان هجومه هو الذي حسم المعركة في الساعة الرابعة بعد الظهر.

ويقيناً، إن أسماء مثل دامية والدمية والكساير، وجميعها في أرض المعركة، لايمكن إلا أن تكون وثيقة الصلة بالقتال الذي دار في ذلك اليوم المشهور[٩٩].

ما إن سمع الفلاحون الفلسطينيون بهزيمة الافرنج في حطين حتى هبت منطقة نابلس واعلنت الثورة على الغزاة. وهاجمتهم القوى الشعبية بمبادرة تلقائية، جاءت حرارتها المتوهجة نتيجة لكبح طويل. وطردهم الفلاحون العرب من نابلس، وهكذا فإن قوات الاسترداد الأيوبية، حين عبرت مرج ابن عامر، متجهة الى الجنوب، قد وجدت المكان محرراً من الافرنج حتى أسوار القدس.

والحقيقة أن الفلسطينيين العرب قد ذاقوا الأمرّين على أيدي الافرنج، خلال السنوات الثماني والثمانين التي سبقت معركة حطين. فحين أصبح تنكرد أميراً على الجليل، اثر فتح القدس (١٠٩٩) عمل أول ما عمل على طرد السكان المسلمين من أراضيهم، واستبقى اليهود والمسيحيين. فالتجأ الكثير من الفلسطينيين الى دمشق، وسكنوا في جامع يسمى جامع صالح. ثم تشاجروا مع بعض الجيران، فخرجوا الى سفح قاسيون وبنوا بلدة سميت الصالحية، نسبة الى الجامع الذي كان سكناً للاجئين.

وبعدما احتل الصليبيون قيسارية، إثر احتلالهم لمدينة القدس، ذبحوا أكثر من نصف السكان، وباعوا النصف الثاني في أسواق النخاسة. وعومل العبيد

بقسوة فظيعة جعلت الكنيسة نفسها «ترق لحالهم» وتتدخل من أجل حمايتهم في قليل من الأحيان، وذلك لأن التطرف في القسوة قد يلاشي العبيد المنتجين، فيؤدي ذلك الى الحاق أضرار باقتصاد الافرنج.

وقد سبقت الاشارة الى المذابح التي ارتكبها الغزاة بحق سكان القدس وعكا. أما حيفا وارسوف فقد فتحهما الافرنج بالسيف وطردوا السكان من المدينتين، وذلك عام ١١٠٠.

وقد كان السكان العرب والسريان في فلسطين معادين للافرنج ووجودهم هناك. ويؤكد المؤرخ اللاتيني فولهر من شارتر أن السكان كثيراً ماكانوا ينتفضون على الغزاة كلما استطاعت احدى القوى العربية ان تلحق الهزيمة بالافرنج. ففي سنة ١١١٣، إثر انتصار مودود في الاقحوانة، ثار الفلاحون في نابلس وهاجموا المدينة ونهبوها على الرغم من ارادة الافرنج.

وكثر قطاع الطرق في فلسطين وراحوا يداهمون الغزاة كلما سنحت الفرصة، وعبثاً حاول غودفري وأخوه بلدوين الأول أن يطهرا جبل الكرمل من المتمردين. وقد اعتاد الفلسطينيون على مهاجمة تجمعات الصليبيين المدنية، ولا سيما الحجاج، في الجبال والأحراج، ونهبهم وإبادتهم، إن أمكن. ومن الثابت أن المسيحيين السريان قد كانوا يفضلون المسلمين على الصليبيين، مما يؤكد أن الافرنج قد عاشوا أغراباً في الشرق.[٦٠]

وسرعان ما قدمت حطين ثمارها اليانعة، إذ أخذت المدن في فلسطين تتهاوى الواحدة إثر الأخرى تحت ضربات القوة الأيوبية الظافرة، التي احتلت طبرية وعكا ويافا وعسقلان، ثم حاصرت القدس، واستردتها سلماً في الثاني من تشرين الأول، أي بعد حطين بثلاثة أشهر، على وجه التقريب. وهذا يعني أن القدس قد ظلت ثمان وثمانين سنة في حوزة الافرنج. ولم يمض عام ١١٨٧ حتى كان صلاح الدين قد استرد فلسطين كلها. وهكذا ابعد الافرنج عن البحر

الأحمر، الشريان الذهبي لتجارة الهند والصين في ذلك الزمن، وأصبح في ميسور مصر أن تنتعش طوال عدة قرون.

أما مدينة صور التي احتشدت فيها أعداد كبيرة من الافرنج، بعضهم من فلسطين وبعضهم من أوروبا، فقد صمدت في وجه السلطان الأيوبي صموداً كان بمثابة نقطة تحول في مسار الحرب، التي صارت سجالاً، أو قل رجحت كفتها لصالح الافرنج.

فقد وصل الى صور أثناء الحصار رجل فرنسي اسمه كونراد دي مونفيرات. وكانت صور توشك أن تستسلم لصلاح الدين، ولكن وصول هذا المركيز على رأس فرقة جيدة من الجنود قد غيّر الأمور، إذ استطاع بالفعل أن يصون المدينة وأن يصد الجيش الأيوبي عنها بعدما يئس من فتحها.

وأمضى صلاح الدين عام ١١٨٨ وهو يحاصر المدن الافرنجية والقلاع الصليبية في لبنان وسوريا، ففتح بعضها واستعصى عليه الكثير منها، وذلك نظراً لما تدفق عليها من محاربين أتوا مبادرين من أوروبا. وكانت انطاكية وطرابلس وصور من أهم المدن التي استعصت وصمدت في وجه الأيوبيين[٦١].

ما ان سمع البابا أوربان الثالث بنبأ القدس حتى فارق الحياة من شدة الصدمة. أما أوروبا فقد هاجت وماجت لدى سماعها بالنبأ إياه.

فحشدت وجيشت، وصممت على الرجوع بالاوضاع الى ماكانت عليه قبل بداية تموز عام ١١٨٧. وهكذا تدفقت السفن مشحونة بالمقاتلين الى طرابلس وصور وانطاكية، وذلك لدعم صمود هذه الاسواق الخطيرة الشأن.

وانتقل الافرنج من دور الدفاع الى دور الهجوم. فالملك غاي، الذي أقسم لصلاح الدين في حطين ألا يقاتله بعد ذلك اليوم، قد أحلته الكنيسة من قسمه، إذ قال له الكهنة: «لا عهد لكافر». ولهذا فقد انطلق من مدينة صور على رأس قوة كبيرة، في صيف عام ١١٨٩، وراح يحاصر مدينة عكا.

واستنفرت أوروبا اثر حطين، وخرجت جيوشها الى الشام في حملة صليبية

ثالثة، بغية استرجاع القدس وتأديب الأيوبيين. وكان الامبراطور الألماني فريدرك بربروسا (اللحية الصهباء) أول القادمين من الملوك.[٦٢]

قبل أن يتحرك فريدرك من ألمانيا، أرسل الرسل ليتقرب الى قليج ارسلان الثاني، سلطان قونية المعادي لصلاح الدين. أما الامبراطور البيزنطي، اسحق انجيلوس، فقد وثق صلاته مع الدولة الأيوبية. وحين وصل فريدرك الى الاراضي البيزنطية، على رأس جيش يتألف من عشرين ألف فارس وثمانية آلاف جندي من المشاة، ماكان من الامبراطور البيزنطي إلا أن جبن وتخاذل وعقد صلحاً مع فريدرك، مما أتاح الفرصة للألمان بقضاء الشتاء في الأراضي البيزنطية. وفي الربيع التالي، أوفي آذار عام ١١٩٠، اجتاز الامبراطور الألماني مضيق الدردنيل، ودخل بعد ذلك في أراضي مملكة قونية، التي سبق لسلطانها ان عاهد الألمان على السماح لها بالمرور في أرض بلاده دون ازعاج.

وبالطبع، كان قليج أرسلان الثاني قادراً تمام المقدرة على أن يسحق بربروسا وفرسانه الصناديد. فقد سبق لهذا السلطان أن سحق الامبراطور البيزنطي في ميريوكيفالون، كما سبق له أن وحد الأجزاء التركية من الأناضول داخل مملكته القوية. ومن المعروف أن القونويين قد فتكوا بالجيش الألماني عام ١١٤٨. فما الذي يمنعهم الآن من إبادة جيش فريدرك؟

كل مافي الأمر أن أي قتال يخوضه قليج أرسلان ضد فريدرك هو في صالح الدولة الأيوبية التي تهدد مملكة قونية من الجنوب، وهو كذلك إضعاف لعدو بيزنطة، وبيزنطة هي العدو الدائم للسلاجقة.

ولكن الأمير قطب الدين، وهو ابن قليج أرسلان، قد تحرك ضد الألمان، دون ارادة أبيه، وذلك نظراً لما بينه وبين صلاح الدين من علاقة وارتباط.

بدأ قطب الدين بالاغارات والكمائن المفاجئة للألمان. ثم التقى بجيش الامبراطور قرب مدينة قونية، حيث دارت معركة ضارية بين الطرفين في أيار (١١٩٠)، وانتهت المعركة بهزيمة قطب الدين وانتصار بربروسا. وخرج السلطان

بشخصه الى الامبراطور الألماني وطيب خاطره واعتذر له عما فعل ابنه. فكان فريدرك مرغماً على أن يرضى بهذا الاعتذار لأنه محاط بالأتراك من جميع الجهات، ولأن قونية لم تستخدم جميع قواتها بعد وانتهت الأزمة، وتابع الامبراطور الصليبي زحفه باتجاه كيليكيا، على رأس جيش سماه المؤرخون الغربيون «زهرة الفروسية الاوروبية».

يقيناً، كان الأيوبي محظوظاً. فمن حسن طالعه أن غرق فريدرك في أحد الأنهار في كيليكيا، قبل أن يدخل سوريا. فما كان من الجيش الألماني إلا أن بدأ بالتحلل. إذ لقد عاد الكثيرون إلى ألمانيا، ولم يصل الى عكا سوى فئة قليلة (لعلها ألف جندي) يتزعمها دوق النمسا بوصفه ممثلاً للامبراطور الجديد. واشتركت هذه الفئة في الحصار الذي كان قد بدأه الافرنج حول أسوار عكا قبل وصول الألمان بعام كامل.

كان الصراع شديداً بين الانجليز والفرنسيين طوال النصف الثاني من القرن الثاني عشر. ولهذا فإن الملك الفرنسي، فيليب اوغست، والملك الانجليزي، رتشارد قلب الأسد، قد رفض أي منهما أن يغادر بلاده في حملة صليبية إلا إذا غادر الآخر بلاده أيضاً، إذ كان كل منهما يخاف أن ينقض الآخر على مملكته في حال غيابه.

وعلى أية حال، فقد تحرك الملكان، ونقل كل منهما قواته الى صقلية. وهناك أخذ الخلاف ينشب بينهما ويتطور. والحقيقة أن اخفاق الحملة الصليبية الثالثة قد تأكد في صقلية. ولا ريب في أن عنجهية رتشارد وصلفه وفظاظته الهمجية قد كانت بين أهم الاسباب التي أدت الى ذلك الاخفاق.

وبعد قضاء الشتاء في صقلية، أبحر فيليب اوغست الى السواحل الشامية في آذار ١١٩١. ثم تبعه رتشارد، ولكن هذا الانجليزي الأهوج قد آثر أن يبدأ بفتح جزيرة قبرص البيزنطية، قبل أن يباشر الأيوبيين القتال. واحتل الجزيرة ونهبها وعامل أهلها وحكومتها بقسوة بالغة، مع أنهم اخوانه في الصليب. ثم

تزوج فتاة اسمها برنغاريا، لعله جاء بها من انجلترة. وبعد ذلك أبحر الى عكا، في حزيران ١١٩١، واشترك في الحصار المضروب على المدينة منذ سنتين كاملتين. كما سبق للملك الفرنسي أن اشترك في الحصار نفسه، قبل رتشارد بشهرين أو ثلاثة. ولكن أهم مافي الأمر أن الاسطول الانجليزي قد حاصر المدينة من جهة البحر، ومنع الاسطول الايوبي من إمدادها، فأصبح سقوط عكا أمراً محتوماً. وقد زاد في حتمية السقوط أمران، أولهما أن الفرنسيين قد جلبوا معهم من أدوات الحصار الشيء الكثير والشديد الفاعلية، وثانيهما أن السلطان الأيوبي قد بذل كل مافي وسعه من أجل فك الحصار عن المدينة، ولكنه أخفق، وذلك لكثرة الافرنج وتجدد قواتهم على الدوام. فما كان الا أن استسلمت عكا في تموز عام ١١٩١، أي بعد سنتين كاملتين من الحصار.

وتضمنت شروط الاستسلام الابقاء على حياة رجال الحامية مع بقائهم رهائن عند الافرنج ريثما يدفع السلطان مبلغاً كبيراً من المال، وريثما يعيد صليب الصلبوت ويفك من الأسر ألفاً وخمسمائة رجل من الافرنج. ووافق الطرفان على ذلك. وانتظر رتشارد أن ينفذ صلاح الدين شروط الاتفاق.

وعندما دخل الصليبيون عكا دب الخلاف بينهم من أجل عرش مملكة القدس، التي لم تشمل سوى مدينة صور وعكا في ذلك الوقت. فالمركيز المغامر مونفيرات قد رفض أن يعترف بالملك غاي ملكاً على القدس، لأنه جبان خوار، كما ادعى المركيز. ثم ان مونفيرات هو الذي حمى صور حين اوشكت أن تستسلم للأيوبي. وحين وصل الانجليز والفرنسيون الى عكا، راح رتشارد يدعم غاي، بينما انحاز فيليب اوغست الى المركيز الفرنسي الأصل. وترسخ الخلاف بين الطرفين، فما كان من فيليب اوغست إلا أن انسحب من الحرب وعاد الى بلاده، تاركاً معظم جيشه في فلسطين، إذ لو سحب جيشه كله لانسحب الانجليز كذلك، خوفاً من هجوم تشنه فرنسا على انجلترة.

كما انسحب من الحرب دوق النمسا التابع للامبراطور الألماني، إثر اهانة وجهها اليه الانجليز، فلم يبق في الميدان سوى قلب الأسد.

وتأخر الأيوبي في تنفيذ الشروط التي اتفق عليها الطرفان عند تسليم عكا. فما كان من الملك الانجليزي، ذي المزاج الناري، ومن انجليزه «الأشاوس»، إلا أن ذبحوا الرهائن، وعددهم ألفان وخمسمائة رهينة، فيهم النساء والأطفال، وذلك بطريقة مسرحية رعناء تثير الاشمئزاز والسخرية في آن واحد.

وبعدما أشبع قلب الأسد، أو «فارس المسيحية»، شهوته الى الدم البشري، أخذ يتحرك باتجاه الجنوب على رأس جيش ضخم. وفي غابة أرسوف، بين حيفا ويافا، داهمت القوات الأيوبية الجيش الاوروبي، وزعم كل من الطرفين أنه المنتصر. والحقيقة أن معركة أرسوف لم تكن أكثر من إغارة اعتراضية شنها الجيش الأيوبي، وفقاً لمبدأ «اضرب واهرب». أما غرضها فرفع معنويات الصديق وتحطيم معنويات العدو، إذ لقد كانت القيادة الأيوبية في أمسّ الحاجة الى هذين الأمرين إثر سقوط عكا. ومادامت المعركة بهذه المثابة، فلا ريب في أن الغارة الأيوبية قد أنجزت أغراضها.

واستولى رتشارد على يافا. ثم زحف جنوباً وخاض معركة صغيرة في الدارون (دير البلح الحالية)، الى الجنوب من غزة، واستولى على المدينة الصغيرة. ثم حاول، أولوّح بأنه يحاول، الزحف على القدس أكثر من مرة. ولكن محاولاته هذه لم تكن اكثر من ضغط على صلاح الدين ليقبل بالصلح، الذي طلبه رتشارد والح عليه، بعدما استولى على ساحل فلسطين كله. فقد وصلت الأنباء من انجلترة أن جون، شقيق رتشارد، قد عزله ونصب نفسه ملكاً على البلاد بدلاً من الملك المقاتل في الأراضي المقدسة. وربما خاف رتشارد من أن يدبر الملك الفرنسي أمراً ضد انجلترة، مستغلاً الظرف الجديد.

وقد نشطت الدبلوماسية بين رتشارد والايوبيين، طوال سنة كاملة تقريباً، وذلك ابتغاء التوصل الى صلح يرضي الطرفين. وأثبت العادل، ملك مصر

وشقيق السلطان، أنه سفير بارع. فقد كان يجتمع برتشارد وبعدوه المركيز مونفرات، كلاً على حدته، دون أن يعلم رتشارد بأي اتصال بين الرجلين الآخرين.

وذات يوم فوجيء الناس بنبأ اغتيال المركيز مونفيرات على أيدي الحشاشين. والأرجح ان مقتله قد تم نتيجة لمؤامرة بين قلب الأسد وصلاح الدين وسنان أمير الجبل، وهذا الأخير سبق له أن تصالح مع السلطان الأيوبي بعد حرب قصيرة دارت بينهما. وأغلب الظن أن اغتيال المركيز الفرنسي الأصل، والمحالف لملك فرنسا، عدو قلب الأسد، إنما كان جزءاً من صفقة الصلح بين رتشارد وصلاح الدين.

إن تاريخ اغتيال المركيز مونفيرات هو بحد ذاته مؤشر الى المؤامرة. فقد جُندل الرجل غدراً في نيسان ١١٩٢، أي قبل خمسة أشهر من ابرام صلح الرملة، يوم كانت المفاوضات الدبلوماسية بين الفرنجة والأيوبيين على أشدها. والجدير بالتنويه أن حق الملك غاي في عرش بيت المقدس إنما كان يتأسس على زواجه من سبيلا، ابنة الملك أمالريك (عموري)، وشقيقة الملك بلدوين الرابع المتوفى عام ١١٨٥.

ولكن سبيلا ماتت بعد وصول مونفيرات الى صور، فما كان من هذا المركيز المغامر الطامع بمنصب رفيع الا أن سارع فتزوج من شقيقتها ايزابيلا. وهكذا ترسخ حق المركيز في تاج القدس، وذلك بوصفه زوجاً للوريثة الشرعية للمملكة، التي صارت عاصمتها عكا بعدما استردها الافرنج عام ١١٩١.

والجدير بالتنويه أنه قد كان للسلطان الأيوبي مأرب في اغتيال المركيز الباسل الذي دافع عن صور أحسن دفاع وصد العرب عن أسوارها. فقد كان صلاح الدين يفضل التعامل مع شخصية متهافتة، مثل الملك غاي، على الاشتباك في صراع مرير مع شخصية قوية مفعمة بالطموح، مثل المركيز كونراد دي مونفيرات. وفضلاً عن ذلك فإن صلاح الدين قد كان يعمل جاهداً على استرضاء قلب الأسد السريع الغضب والشديد العنجهية.

كان الأيوبي يعرف مايدور في المعسكر الصليبي، بل كان يعرف مايجري داخل البلدان الاوروبية، من خلافات أسهمت اسهاماً فعالاً في احباط الحملة الصليبية الثالثة. ولهذا فقد راح يماطل ويؤجل عقد الصلح. بل لقد بذل محاولة صغيرة لاسترداد يافا، ولكنه أخفق، وانتهت المعركة بجلاء القوات الأيوبية عن المدينة. فصلاح الدين متأكد من أن قلب الأسد سوف يرحل عن فلسطين ليصفي حسابه مع أخيه جون في انجلترة، ولهذا فلا لزوم للتصالح معه، إذ بعدما يرحل سوف تتضعضع همم الافرنج وتفتر، وبالتالي فإن الجيش الأيوبي سوف ينتزع منهم الكثير. هذا هو موقف صلاح الدين شخصياً. أما امراء الجيش الأيوبي فقد سئموا القتال مثلما سئمه الافرنج. ولهذا فقد جنح الطرفان الى الموادعة والهدوء.

وأخيراً ابرم صلح الرملة في الثاني من ايلول عام ١١٩٢، أي بعد خمسة أعوام وشهرين على بدء الحرب الطويلة التي ختمت هذا الطور الحاسم.

وتضمنت شروط الصلح أن يحتفظ الصليبيون بالساحل الفلسطيني من يافا الى عكا. أما عسقلان فتبقى للايوبيين بعد تدمير أسوارها. وتظل فلسطين، ومن ضمنها القدس، جزءاً من الدولة الايوبية. ويحق لكل من أنطاكية وطرابلس أن تدخلا في الهدنة أيضا. وأما مدة السلم فثلاثة أعوام وثلاثة أشهر.

وعاد الأيوبي الى دمشق ليقضي نحبه في الثالث من آذار عام ١١٩٣، أي بعد ستة شهور من صلح الرملة، ولكن بعد جهاد لا تقل مدته عن ثلاثين سنة. وقد أقر الافرنج بأصالة صلاح الدين ورحمته ودماثة طبعه وشجاعة جنده.

ولقد مات صلاح الدين عن أربعة وخمسين سنة وحسب. ويبدو أن هذه الوفاة المبكرة نسبياً قد جاءت نتيجة الاجهاد الطويل، أو ربما لانعدام الأهداف الكبرى بعد إبرام الصلح. فالرجال العظماء يموتون بسرعة حين لاتبقى لديهم غايات تاريخية جُلّى، إذ يبدو أن رجل الفعل قل أن يطيق الفراغ، شأنه في ذلك شأن التاريخ نفسه.

وأهم مافي أمر صلاح الدين أن المؤرخين العرب (باستثناء ابن الأثير،

الـذي هومؤرخ من سمت رأسـه حتى أخمص قدمـه) لم يبدأ أي منهم بعد بانتقاد تجربته، لا بالطرق العلمية ولا غير العلمية. فقد أحيط فارس الشرق الاسلامي بهالـة من التقـديس لا يجوز المسـاس بها لأحـد. بيد أن من أهم خصائص العقل البشري أن يزلزل المستتبات ويزعزع الراسخات.

ولهـذا لابـد من دراسـة خاصـة يفـردها أحد الباحثين لتبيان مواطن الغلط والصـواب، دون أن يتضمن ذلـك رفـع التبجيـل عن شخصيـة السلطان الوطني الجدير بكل تقدير.

أمـا قلب الأسـد، فقـد بالغ المؤرخون الاوروبيون في تضخيم شخصيته. وللمرء أن يختلف معهم ابتداء من هذه التسمية المصطنعة التي اطلقوها عليه. فهو لايستحق هذا اللقب أبـداً، ومـاذاك إلا لأن انجـازاته في فلسطين جد متواضعة، فالقـوات التي تحت امـرتـه كانت كفيلة بأن تحتـل دمشق أو القـاهـرة، فضـلاً عن القـدس، لو أنهـا وضعت تحت امـرة بوهمند الأول، أو تحت أمرة تنكرد. وقد يقال بأن مؤامـرة أخيـه جون هي التي شكمتـه ومنعتـه من الانجـازات الكبرى. ومع ذلك تبقى هنـالـك حقيقـة شديـدة الألق، وهي أن منجزات قلب الأسد كانت طفيفة الشأن، ولهذا السبب، فإنه لايستحق الكثير من التبجيل.

ولوجه الحق الخالص، أقول بأن رتشارد لم يكن اكثر من همجي أرعن، يفتقر أيـما افتقـار إلى الاصـالـة الانسـانيـة ونبـل الروح البشري. فهوليس فقط عديم الجدوى لوطنه أوروبا (أو انصافاً للرجل، قل ان جدواه كانت طفيفة)، بل هوقبل كل شيء عديم الجـدوى للانسـانيـة التي يجلهلهـا كل الجهـل. اكثر من ذلك ان رتشارد، من بين جميع الشخصيات الصليبية الكبرى، ليس انساناً سوياً الى حد ما. بطـل أوروبـا، وفـارس المسيحيـة «المكافحة من أجل مقدساتها»، يعجز عن محاصرة القدس، فيلجأ الى ذبح الأسرى، وبطريقة تمثيلية لا تخلو من الهستيريا.

إن قلب الأسـد الـذي قضى زهـاء عامـين في فلسطـين لم يخض أية معركة كبيرة، باستثناء محاصرة عكا التي لم يكن له فيها من دور سوى دور المنجد. فالنصر

في عكا ليس مأثرة للافرنج أبداً. فقد تدفقت أوروبا كلها لتقاتل ضد دولة الأيوبيين الفتية والصغيرة نسبياً، فهي صغيرة لدى مقارنتها بأوروبا. وفضلاً عن ذلك فإن القوات الطازجة التي جاء بها الملكان الفرنسي والانجليزي قد حاربت ضد جيش سبق له أن انهكته الحرب خلال السنوات الثلاث السابقة على مجيء القوات الطازجة المرتاحة.

كان على العالم الاسلامي، أو الشطر الغربي من الشرق، أن يزج في أتون المعركة بقوات طازجة تأتي من العراق والأناضول وايران. والحقيقة أن معاداة الأيوبي للسلاجقة في قونية وفي أصفهان هي التي مكنت قلب الأسد من احراز انتصاراته الصغيرة، ومن مغادرته لفلسطين دون أن يؤسر أو يقتل، وذلك في تشرين الأول، عام ١١٩٢، أي بعد صلح الرملة بشهر واحد فقط.[٦٣]

لقد تحالف صلاح الدين مع الرجل المريض، العديم الجدوى، أقصد الامبراطور البيزنطي المتوّج فوق الخواء يومذاك، وفرط بالتحالف مع قليج أرسلان الذي كان يمكن أن يكون شديد النفع لحركة الاسترداد. وقد سبق له أن أثار عليه نقمة الموحدين في المغرب مقابل بعض الأراضي الليبية التي لا أهمية لها يومذاك. ولهذا فقد رفض سلطان الموحدين أن ينجد الأيوبي حين استنجد به يوم أتت الحملة الثالثة.

لقد عاد قلب الأسد الى اوروبا سالماً مزهواً بانتصاراته الصغيرة. ويقيناً إن تلك العودة الظافرة نسبياً هي علامة واضحة على أن الشيخوخة كانت قد أخذت تتأكل الشرق بالفعل.

حيثما وجدت ضعفاً بشرياً أو قوة بشرية ففكر بالزمن، إذ الزمن أس الانسان، فرداً كان أم جماعة، بل يقيناً ان الانسان ليس الا فلذة من الزمن تعوم في هذا الفراغ اللامتناهي.

إن الزمن قد أكل الشرق، أو حصراً غرب الشرق منذ أواسط الألف الأول

قبل الميلاد، بحيث لم يبق له الا انتفاضات آنية تتجلى كل منها بعرام نادر، ولكنها سرعان ما تتلاشى وتذوب في بحر العدم المطلق.

وقد عبّرت الشيخوخة في غرب الشرق عن نفسها من خلال التمزق. والحقيقة أن صلاح الدين الموحّد، قد أسهم في تمزيق الشطر الغربي من بلاد الشرق (أو العالم الاسلامي) أكثر مما أسهم في توحيد ذلك الشطر إذ في المؤكد أنه لم يكن لصلاح الدين في العالم الاسلامي كله من حليف سوى خليفة بغداد. وثمة أخبار تومىء من بعيد الى أنه قد كان يتواصل مع هذا الحليف الوحيد على حذر وريبة. لهذا كله فقد تحتم على الأيوبي أن يقاتل اوروبا الغربية مجتمعة، دون أن ينصره أحد من جيرانه الشرقيين. وفي مثل هذه الحال لابد من أن تلحق الهزيمة بهذا السلطان الذي لايتمتع بما تتمتع به اوروبا من موارد بشرية واقتصادية. ولكن الهزيمة التي مني بها الايوبي قد جاءت خفيفة بالفعل، وذلك لجملة من الأسباب التي جاد بها عليه الحظ، أو قل المسار الموضوعي للتاريخ.

بيد أن هذا التمزق في الصف الاسلامي الذي لم يعمل صلاح الدين على رأبه، إن لم تقل أنه قد أسهم في ترسيخه، كان يقابله تمزق مماثل في الصف المسيحي أيضاً. ولولا هذان التمزقان لكابد البحر المتوسط من الفظائع والكوارث ماقد يفضي إلى ركود الحياة وتقهقر الحضارة على شواطئه الجميلة.

الاشارات

١ ـ هي حرب دارت بين الاخمينيين والاغريق، واستمرت من عام ٤٩٤ ق. م وحتى عام ٤٧٩ ق. م. وأشهر معاركها ماراثون وسالاميس وبلاتيا.

راجع:

محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، الجزء الأول، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠، ص ٢٧٠ ومايليها.

٢ ـ ثار أذينة الثاني على الرومان، بينما كان القتال يدور على أشده بين الساسانيين والرومان، في عصر الملك الساساني سابور (أواسط القرن الثالث الميلادي). وطلب أذينة من سابور أن يتحالف معه ضد الرومان. ولكن الملك الساساني أصر على أن يكون أذينة تابعاً له، وليس نداً. فما كان من أذينة الا أن تحالف مع الرومان ضد سابور، وانقض على الملك الساساني وأنزل به هزيمة ساحقة.

راجع:

عيسى أسعد، تاريخ حمص، القسم الأول، طرابلس ١٩٨٣، المنشورات الجامعية، ص ٣٦٤.

٣ ـ لقد كان الاسكندر المكدوني يتحرك في فراغ عسكري. وكذلك هو حال الرومان بعد معركة زاما في الغرب ومعركة مغنيزيا في الشرق. وهذا يعني أن الشرق كان قد شاخ وأصبح لقمة سائغة لمن أكل. وبهذه الشيخوخة نملك أن نفسر الحركة الخاطفة التي قام بها الاسكندر.

٤ ـ عندما ضعف العرب في الاندلس بعد تفتت الخلافة الاموية الاندلسية، وبعد ظهور ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر الميلادي، تقدم يوسف بن تاشفين، ملك المرابطين البربر واستولى على الأندلس وحماها من الافرنج.

راجع :

الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق - بيروت، ١٩٨١، الطبعة الثانية، ص ٣٩١ ومايليها.

٥ ـ أقصد أن الحرب الصليبية قد كانت تستهدف اخضاع البلدان الآسيوية والافريقية المطلة على البحر المتوسط لهيمنتها، تماماً كما كانت في ايام الرومان الذهبية، ولا سيما في أيام أوغسطس قيصر، المعاصر للسيد المسيح، إذ في زمنه اكتملت هيمنة روما على البحر المتوسط.

٦ ـ ان عبارة «سورة العصبية» في منهج ابن خلدون تكافىء «الشعور القومي» في زمننا الراهن. وقد اعتقد ابن خلدون ان الدولة تأخذ بالتفكك حين تفقد سورة العصبية، واعتقد اشبنغلر ان المجتمع ينهار حين يفقد الشعور القومي.

راجع :

مقدمة ابن خلدون، دار احياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ص ١٣٩.

٧ ـ أقصد بالينبوع المركزي القوة العامة لمجتمع من المجتمعات، وهي تظهر على هيئة سياسة وحرب واقتصاد وفكر. ومع ان مظاهرها متفاوتة النمو، كأن تكون القوة الحربية لمجتمع من المجمعات أبرز من قوته الاقتصادية، أو العكس، فإن هذه الطاقة العامة كثيراً ما تكون ظواهرها كلها منحطة في المجتمع الشائخ. فالمجتمع المتخلف أو المنحط لايهزم في الحرب وحسب، بل حتى في الرياضة. وتكون فيه العلوم والفنون منخفضة المستوى. بينما تكون الطاقة العامة في المجتمع المتقدم، أو الحي أو الفتي، شديدة الغزارة والحضور في معظم مظاهر الحياة.

إن الينبوع المركزي هو النسغ الذي يدور في شرايين المجتمع. ويكون هذا النسغ حياً في المجتمعات الفتية وشحيحاً في المجتمعات الشائخة. والمسألة كلها مسألة زمن.

٨ ـ سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية على أيدي القوط في القرن الخامس الميلادي. وظل الغرب بلا امبراطور حتى عصر شارلمان، أو زهاء عام ٨٠٠م.

راجع :

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، «تاريخ اوروبا في العصور الوسطى»، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، ص٧٧

٩ ـ السلب الموجب، من مصطلحات الفلسفة الهيغلية، وهو يعني الشيء الذي يطلب نقيضه ويحركه ويحثه على أن يكون وأن يفعل. فالاصابة بالسل والشفاء منه يؤديان الى مناعة يكتسبها

الجسم ضد السل. والصهيونية سلب، ولكنها تحرض نقيضها، العالم العربي، على التقدم والنهوض والمجابهة. اذن، مايسلب يوجب.

١٠ ـ دير كلوني، بناه بعض الرهبان في عصر الظلام الاوروبي، وقد أسهم مع سواه من الاديرة في نشر التعليم وتطوير الحضارة في غرب اوروبا.

١١ ـ أقصد بمحاورة البعيد والتأثير في النائيات أن يكون لمجتمع ماصلات سلبية أو ايجابية بمجتمع آخر تفصله عن الأول مسافة طويلة. فحين جاء قلب الأسد من انجلترة الى فلسطين فإنه إنما يحاور النائيات ويؤثر في البعيد. والمجتمع الذي يقيم بعض الصلات مع مجتمع بعيد هو مجتمع يتفور بالحيوية.

والحيوية أو العافية هي التاريخ وأسباب التاريخ. ولا يدوم الشيء الا بمقدار مايحتوي عليه من العافية والصحة، ولا يمكن أن يدوم بأمراضه أو بما يهدم عافيته.

١٢ ـ إن هذه الأحداث أو الوقائع الدالة على أن اوروبا الغربية قد بدأت تحاور البعيد، أو الأماكن البعيدة، هي علامة صحة وعافية في المجتمع الاوروبي الآخذ بالانتقال يومذاك من طور الطفولة الى طور الشباب. وما من سبب اصلي للحادث التاريخي الكبير سوى الصحة والعافية. وكل حادث تاريخي هو مظهر وحسب للصحة والعافية. فالحقيقة الخارجية المطلقة هي القوة وحسب. والانسان ماعبد إلا القوة في أي يوم من الأيام.

١٣ ـ بيزنطة هي استانبول الحالية، وهي تقع في مكان يلتقي فيه مضيق البوسفور وبحر مرمرة والقرن الذهبي. أما القرن الذهبي فهو خليج مستطيل ضيق يتشعب من البوسفور ويتجه غرباً في الاراضي الاوروبية.

أما الاناضول فهو آسية الصغرى، أو الجزء الآسيوي من تركية الراهنة.

١٤ ـ راجع:

الدكتور محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٤٥ ومايليها.

١٥ ـ المرجع السابق، ص ٢٦١.

١٦ ـ المصدر السابق، ص ٢٦٢ ومايليها.

١٧ ـ بخصوص خطاب البابا اوربان الثاني،

راجع:

الدكتور سهيل زكار، الحروب الصليبية، الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود

عيان، الجزء الأول، دمشق، دار حسان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص ٥ ومايليها.

١٨ ـ راجع:

الدكتور سهيل زكار، «حطين، مسيرة التحرير»، دار حسان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص ٦٢.

١٩ ـ حدث التفكك الأول إثر وفاة صلاح الدين الأيوبي واختلف اولاده مع عمهم الملك العادل. ولكن العادل مالبث أن سيطر على الأمور واعاد وحدة أراضي الدولة الايوبية التي بناها صلاح الدين.

أما التفكك الثاني فقد حدث في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي عندما انتقلت السلطة من الايوبيين الى المماليك. وقد استطاع المماليك أن ينتزعوا إرث الأيوبيين كله في الشام والجزيرة وأن يعيدوا الوحدة الى الدولة التي ورثوها من الأيوبيين.

٢٠ ـ مثلاً، أفضت خطوة توحيد سوريا نفسها على أيدي رجال عماد الدين ونور الدين، أفضت افضاء ضرورياً الى اندماج سوريا ومصر وسواهما في دولة واحدة. فمن دون الخطوة الأولى ما كان في الميسور أن تجيء الخطوة الثانية. وهذا هو المقصود بأن الدولة قد كان لها استراتيجية تنفذها بالتدريج فتحرز الانتصارات المتلاحقة.

٢١ ـ قدر بعض المؤرخين عدد الصليبيين الذين قتلوا، أثناء الحملة الأولى، بثلاثين ألفاً، وذلك في أوروبا وحدها.

٢٢ ـ راجع قطعة مطولة من الالكسياد، ترجمها سهيل زكار ونشرها في كتاب الحروب الصليبية، الآنف الذكر، الجزء الأول، ص ١١١ ـ ١٨٧.

٢٣ ـ يحاول الصهاينة اليوم أن يوهموا أنفسهم بأن «الحروب الصليبية ماقامت الا من أجل استئصال اليهود». هذا ماتقوله رواية عنوانها «الحروب الصليبية»، للكاتب الصهيوني عاموس عوز. وقد نشرت الرواية في عدد من أعداد مجلة «الأقلام» خصص للأدب الصهيوني، بعد ترجمتها الى العربية.

ويقول المؤرخ الصهيوني الشهير يوشع دراور في كتاب له (غير مترجم الى العربية) عنوانه «مملكة القدس اللاتينية» أن الحروب الصليبية ليست الا ضرباً من العدوان الاوروبي وقع على يهود فلسطين.

والحقيقة ان اليهود لا صلة لهم بالحروب الصليبية على الاطلاق، فالحروب الصليبية هي جزء من الصراع بين الشرق والغرب، أو حصراً بين المسيحية والاسلام.

ان الصهاينة يكذبون، والأهم من ذلك أنهم لا يخجلون من أنهم يكذبون.

٢٤ ـ فيما يخص الحملة الصليبية الأولى.

راجع:

١ ـ ابن الأثير الجزري، «الكامل في التاريخ»، المجلد الثامن، بدءاً من أخبار سنة تسعين وأربعمائة. دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨.

٢ ـ ابن القلانسي، تاريخ دمشق، دار حسان، دمشق، ١٩٨٣. (ابتداء من سنة ٤٩٠ هـ).

٣ ـ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨. (المجلد الأول).

٤ ـ انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي. دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥.

٢٥ ـ هذا وقد تحدث اسامة في «الاعتبار» عن انحلال أخلاق الافرنج وعن تخلف الطب عندهم.

٢٦ ـ حسين مؤنس، «نور الدين محمود»، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٩٣.

٢٧ ـ إن الكسيوس الخبير بالسياسة والحرب قد نصح الافرنج بالافادة من الخلاف القائم بين المسلمين. والأهم من ذلك أن الصليبيين قد لجأوا الى المخادعة فاتصلوا ببعض الملوك في الشام، أثناء حصارهم لأنطاكية، وأوهموهم بأنهم لا يبتغون الا استرجاع المدن التي كانت لبيزنطة قبل الغزو السلجوقي.

والأرجح أن هذه الأكذوبة، أو الخدعة، لم تنطل على أحد. والدليل على ذلك أن كلاً من ملك دمشق وملك حلب وملك الموصل قد جيشوا وقاتلوا الافرنج قبل احتلالهم لمدينة أنطاكية وبعده بقليل.

٢٨ ـ عن الاسهام الذي قدمته أساطيل المدن الايطالية، ولا سيما جنوة.

راجع:

ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ص ٤٣.

٢٩ ـ المرجع السابق نفسه، ص ٤٤.

٣٠ ـ وبدهي أن المساعدات المادية والعسكرية التي قدمتها بيزنطة قد كانت سبباً آخر بين أسباب انتصار الصليبيين.

٣١ ـ إن أحسن مرجع في متناول القارىء العربي عن حملة ١١٠١ هو الجزء الأول من كتاب ستيفن رنسيمان، وعنوانه «الحروب الصليبية»، وقد ترجمه الى العربية الدكتور السيد الباز العريني.

٣٢ ـ مما هو جدير بالتنويه أن القائد الروماني كراسوس قد هزم في هذا المكان نفسه تقريباً، على أيدي الفرثيين، في أواسط القرن الأول قبل الميلاد.

٣٣ ـ عن معارك المصريين والافرنج في ذلك الطور.

راجع:

ابن القلانسي، تاريخ دمشق، أخبار سنة ٤٩٤هـ والسنوات الثلاث التالية.

٣٤ ـ عن علاقة أنطاكية ببيزنطة منذ بداية الحروب الصليبية وحتى أواخر عهد إمارة انطاكية الافرنجية.

راجع:

الدكتور عادل زيتون، العلاقات السياسية بين الشرق والغرب، دمشق، دار دمشق، ١٩٨٢. وهو كتاب ممتاز في هذا الموضوع.

٣٥ ـ عن أخبار مودود، أمير الموصل.

راجع:

ابن القلانسي، تاريخ دمشق، أخبار سنة ٥٠٦هـ.

٣٦ ـ المرجع السابق، أخبار سنة ٥١٣هـ.

راجع كذلك:

ر. سي. سميل، الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٣١.

٣٧ ـ راجع:

ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، الجزء الأول، ص ٤٤٢.

٣٨ ـ عن هجمة الامبراطور يوحنا كومنين على شمال سوريا وحصار شيزر.

راجع :

الدكتور عادل زيتون، العلاقات السياسية بين الشرق والغرب، مصدر سابق.

٣٩ ـ عن أوضاع دمشق في هذه الآونة.

راجع :

ابن القلانسي، مصدر سابق، ابتداء من أخبار سنة ٥١٩هـ.

٤٠ ـ عن مقتل زنكي.

راجع :

الدكتور حسين مؤنس، «نور الدين محمود»، مصدر سابق، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

٤١ ـ المصدر السابق، ص ١٦٩.

٤٢ ـ عن الحملة الصليبية الثانية.

راجع :

قطعة من «تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار» لوليم الصوري، ترجمها سهيل زكار، ونشرها في «الحروب الصليبية»، مصدر سابق.

وعن حصار الحملة لدمشق، راجع :

ابن القلانسي، مصدر سابق، أخبار سنة ٥٤٣هـ.

٤٣ ـ عن اسهام لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية.

راجع :

اودو اف دويل، «رحلة لويس السابع الى الشرق». وهو كتاب ترجمه سهيل زكار ونشره في الجزء الأول من «الحروب الصليبية»، مصدر سابق.

٤٤ ـ ر. سي. سميل، «الحروب الصليبية»، مصدر سابق، ص ٧٢.

٤٥ ـ عن مناشط نور الدين في ميادين الاقتصاد والعمارة والثقافة والطب والادارة.

راجع :

الدكتور عماد الدين خليل، «نور الدين محمود»، دار القلم، دمشق ـ بيروت، ١٩٨٠.

٤٦ ـ عن الصراع الذي دار بين سوريا ومملكة القدس من أجل الهيمنة على مصر.

راجع :

الدكتور حسين مؤنس، «نور الدين محمود»، مصدر سابق، الفصل الثامن.

وراجع :

الدكتور جمال الدين الشيال، «تاريخ مصر الاسلامية»، الجزء الثاني، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧، ص ١٢ - ٢٠ .

٤٧ ـ عن الحملة البيزنطية ـ الصليبية على دمياط، عام ١١٧٠ .

راجع :

جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الاسلامية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص ٢٢ـ ٢٥ .

وراجع :

محمد سعيد عمران، «معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية»، مصدر سابق، ص ٣١٨ - ٣٣٤ .

٤٨ ـ راجع :

محمد سعيد عمران، «معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية»، مصدر سابق، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

وراجع :

انتوني بردج، «تاريخ الحروب الصليبية»، مصدر سابق، ص ١٦٧ .

٤٩ ـ راجع :

محمد سعيد عمران، «معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية»، مصدر سابق، ص ٢٨٣ .

٥٠ ـ أنتوني بردج، «تاريخ الحروب الصليبية»، مصدر سابق، ص ٥٠ .

٥١ ـ عن معركة ميريوكيفالون .

راجع :

محمد سعيد عمران، «معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية»، مرجع سابق، ص ٢٩٠ وما يليها .

٥٢ ـ المصدر السابق نفسه، الفصل السابع عشر .

٥٣ ـ بخصوص اوضاع مملكة القدس قبيل معركة حطين .

راجع :

انتوني بردج، «تاريخ الحروب الصليبية»، مصدر سابق، ص ١٨٢، وص ١٩٣، وص١٧٩ .

٥٤ ـ عن الصلات التجارية بين الأيوبيين والمدن الايطالية في زمن صلاح الدين .

راجع :

الدكتور عادل زيتون، «العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب»، دمشق، دار دمشق، ١٩٨٠، الفصل الأول من الباب الرابع.

٥٥ ـ راجع :

انتوني بردج، «تاريخ الحروب الصليبية»، مصدر سابق، ص ١٨٧ ـ ١٨٩.

٥٦ ـ عن هذه السرية التي قادها مظفر الدين كوكبوري.

راجع :

بسام العسلي، «الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية»، بيروت، دار النفائس، ١٩٧٨، ص ٩٥ ـ ٩٦.

٥٧ ـ المصدر السابق نفسه، ص ١٠٠.

٥٨ ـ إن كاتب هذه السطور قد ولد في لوبية هذه، وهو يعرف جميع الأماكن الجزئية التي يرد ذكرها الآن.

٥٩ ـ عن يوم حطين.

راجع :

الدكتور سهيل زكار، «حطين مسيرة التحرير»، مصدر سابق، ص ١١٧ ـ ١٦٧.

٦٠ ـ عن وضع السكان العرب والسريان في مملكة القدس طوال القرن الثاني عشر الميلادي.

راجع :

ميخائيل زابوروف، «الصليبيون في الشرق»، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦، ترجمة الياس شاهين، ص ١٣٦ ـ ١٣٩.

٦١ ـ عن أعمال صلاح الدين بعد حطين، وعن حروبه في سواحل لبنان وسوريا.

راجع :

العماد الأصفهاني، «الفتح القسي في الفتح القدسي»، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

٦٢ ـ عن الحملة الصليبية الثالثة.

راجع :

ارنست باركر، «الحروب الصليبية»، الفصل السابع، مصدر سابق.

وراجع :

انتوني بردج ، «تاريخ الحروب الصليبية» ، مصدر سابق ، الفصل السادس عشر .

٦٣ - يتوجب على القوى العربية في الوقت الراهن أن تستفيد من غلطة صلاح الدين هذه ، وأن لاتقدم على ارتكابها مرة ثانية في صراعها الحالي ضد الغرب المهوّد ، أقصد أن لابد من تحالف بين العرب والأتراك والايرانيين ضد الصهيونية والامبريالية ، إذا ما أريد للحملة الصليبية - الصهيونية المشتركة أن تدحر .

المصادر

أولاً ـ المصادر العربية التراثية

١ ـ ابن الاثير الجزري، علي بن أبي الكرم، «الكامل في التاريخ»، المجلد الثامن والمجلد التاسع، دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.

٢ ـ ابن شداد، بهاء الدين، «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩.

٣ ـ ابن القلانسي، حمزة بن أسد، تاريخ دمشق، دمشق، دار حسان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

٤ ـ العماد الأصفهاني، «الفتح القسي في الفتح القدسي»، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

ثانياً ـ المصادر العربية الحديثة

١ ـ خليل، عماد الدين، «نور الدين محمود»، دار القلم، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.

٢ ـ زيتون، عادل، «العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى»، دار دمشق، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٠.

٣ ـ زيتـون، عادل، «العـلاقـات السيـاسيـة بين الشـرق والغـرب في العصـور الوسطى»، دار دمشق، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٢.

٤ ـ زكـار، سهيـل، «حطـين، مسـيرة التحـريـر»، دار حسان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.

٥ ـ الشيال، جمال الدين، «تاريخ مصر الاسلامية»، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧.

٦ ـ عاشـور، سعيـد عبـد الفتـاح، «تـاريـخ اوروبا في العصور الوسطى»، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٧٦.

٧ ـ العسـلي، بسـام، «الأيـام الحـاسمـة في الحـروب الصليبيـة»، دار النفائس، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٨.

٨ ـ عمـران، محمـد سعيـد، «معـالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية»، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١.

٩ ـ مؤنس، حسـين، «نـور الـدين محمـود»، الشـركـة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩.

ثالثاً ـ المصادر الأجنبية المترجمة

١ ـ بردج، انتـوني، «تـاريـخ الحروب الصليبية»، ترجمة أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥.

٢ ـ باركـر، ارنست، «الحـروب الصليبيـة»، ترجمـة السيـد البـاز العـريني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، بلا تاريخ.

٣ ـ رنسيـمان، ستيفن، ترجمـة السيـد البـاز العـريني، المجلد الأول والثاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨.

٤ ـ زابوروف، ميخائيل، «الصليبيون في الشرق»، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦.
٥ ـ «الحروب الصليبية»، الحملتان الأولى والثانية، حسب روايات شهود عيان»، جمعها وترجمها، في جزئين، الدكتور سهيل زكار، وصدرت الطبعة الأولى عن دار حسان، دمشق، ١٩٨٤.
٦ ـ سميل، ر. سي، «الحروب الصليبية»، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٢.

المحتويات

مدخل ٥
أوربا تخرج من ظلماتها ١٣
السلاجقة والبيزنطيين ١٩
تحقيب الحروب الصليبية ٢٣
الجيوش التسعة ٣١
طور المباغتة ٤١
تأسيس الدولة السورية ٦١
طور الوحدة والاقتحام ٨١
الاشارات ١١٣
المصادر ١٢٣

صدر عن الاهالي

١ ـ النباتات الطبية واستعمالاتها	د. محمد العودات و د. جورج لحام
٢ ـ المعتزلة والفكر الحر	د. عادل العوا
٣ ـ ساعة الشؤم (رواية)	غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة صالح علماني
٤ ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان	د. عبدالله حنا
٥ ـ والليل الذي يسكنني (شعر)	ممدوح عدوان
٦ ـ الفضاء هذا العالم الجديد	مجموعة من الباحثين، ترجمة عيسى طنوس
٧ ـ السينما والقضية الفلسطينية	حسين العودات
٨ ـ أناباز (قصيدة طويلة)	سان جون بيرس، ترجمة عبد الكريم كاصد
٩ ـ الفرسان الثلاثة (للاطفال)	سليمان العيسى وصلاح مقداد
١٠ ـ الداء السكري	د. مية الرحبي
١١ ـ المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة	علي القيّم
١٢ ـ أزهار الكرز (أشعار يابانية)	ترجمة عدنان بغجاتي
١٣ ـ وضاح وليلى (للاطفال)	سليمان العيسى
١٤ ـ القيامة والزبال (مسرحيتان)	ممدوح عدوان
١٥ ـ الذاكرة والغضب (رواية)	فائز الزبيدي
١٦ ـ حكاية الرجل الذي رفسه البغل (قصص)	وليد معماري
١٧ ـ حكى لي الأخرس (سخريات صغيرة)	خطيب بدلة
١٨ ـ قدّاس من أجل فلاح اسباني (رواية)	رامون خ. سندر ترجمة عاصم الباشا
١٩ ـ البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف	د. أحمد جاسم الحميدي
٢٠ ـ الذهب (قصة للأطفال)	يحي الشيخ
٢١ ـ التلوث وحماية البيئة	د. محمد العودات
٢٢ ـ مسرح الريادة (دراسة)	عبد الفتاح قلعه جي
٢٣ ـ طبرصف والزينبية	عدنان عمامة
٢٤ ـ الكاتبات السوريات ١٨٩٣ ـ ١٩٨٧	مروان المصري
٢٥ ـ حطين	يوسف سامي اليوسف
٢٦ ـ زوبك (رواية)	عزيز نسين، ترجمة: عبد القادر عبد اللي

هذا الكتاب

يجد القـارىء في هذا الكتاب مسـرداً كامـلاً لجميع أحـداث الحروب الصليبية منذ ابتدائها وحتى توقيع صلح الرملة عام ١١٩٢ .

وهـو يُعنى عنـاية خاصة بتحقيب الحـروب الصليبية ، أي بتقسيمها الى أحقاب ، الشيء الذي قل أن يهتم به المؤرخـون ، مع أن العقـل حيث يحقّب هذا العصـر أو ذاك إنـما يحاول أن يهيمن على مفـاصـل الأزمـان ليـدرك انقـلابـاتهـا الكبرى ، وليتعرف على ألوانها المتباينة وأصباغها المتمايزة .

وهـو يولي الكثير من الأهمية للوضع السياسي الدولي عشيّة معركة حطين ، التي ماكان لها أن تتم لولا تحقق جملة من الشروط الدولية والاقليمية معاً .

وهو صريح في دعوته الى أن من واجب العرب اليـوم أن يستفيـدوا من الـدروس التي قدمتها الحروب الصليبية ، ولاسيما وجوب التوجه نحو إقامة ضرب من التقـارب بين العـالم العـربي وتركية وايران ، بغية دحر الحملة الصليبية ـ الصهيونية الراهنة .

الناشر